رواية

كوكو سودان كباشي





سلوى بكر

كوكو سودان كباشي

سلوى بكر

ـ ١ ـ

أوراقي

حتى وقبل أن يبحر، إبحاره النهائي في محيطات العدم، بأيام قليلة، كنا ـ هو وأنا ـ ما نزال وكعهدنا دوما، نمارس لعبتنا الأثيرة القديمة، التي عودني على لعبها معه منذ طفولتي الأولى الغريبة، كنا نتشارك فيها أيا كان ما يفعله أو يشغله: واقفًا يثير دوامات مكرونة لسان العصفور في وعاء الحساء أو أمام مرآة الحمام مجتثًا حشائش ذقنه السوداء العنيفة، أو منحنيا جاهدا بالفرشاة كي يحاكي حذاءه المرآة تهيئًا لواحد من لقاءاته الغرامية المزمنة، كان ينشد بصوت قوس قزح محاولاً الوصول إلى فريد الأطرش.

ـ يا زهرة في خيالي.

فأرد بدوري: رعيتها بفؤادي.

كنت كثيرا ما أخرج الكلمات من فمي ملحونة بمزيج التأفف والملل، فيوما بعد يوم وسنة وراء سنة، كنا نتحاور حبا ولعبا بكلمات هذه الأغنية التي بدت لي مع مرور الوقت وكأنها أحد الواجبات المدرسية الثقيلة المفروضة علي فرضا

والمكرورة بإزمان، لكن ذات مـرة وعنـد ذلـك المسـاء المحفورة تفاصيله على مسلة الذاكرة الأبدية فـي داخلـي، وعندما ألقى رأسه العامر ببياض الزمن إلى الخلـف علـى مسند كرسيه الهزاز، تحت الشباك الملامس شيشـه لفـروع شجرة المانجو العتيقة، أدركت وقتها أننا لن نغنـي أغنيتنـا القديمة بعد ذلك أبدا، وكنت خلال ذلك قد شعرت بنفاد هواء البيت كله فجأة حتى كاد صدري أن ينطبـق بعضـه علـى بعض وبتّ على وشك الاختناق بينما انقطع التيار الكهربائي فأظلمت الدنيا في عيني ظلاما على ظلام، أما قططه الخمس الأليفة: بندق وفستق ومشمش وفلّة ورزة، فقد بـدأت تمـوء مواء موحشًا مؤثرا، دفـع زوج الكنـاري للصـداح بلحـن جنائزي مهيب داخل قفصه المعلق قرب شباك المطبخ، ثـم بدأت عيناي تمطران مطرا عنيفًا، دفع السـمكات الـذهبيات الست، والثلاث السوداوات الكانسات للفضلات إلى الخـروج من كرتها المائية الزجاجية تاركة محيطها المحدود، والسباحة في أرضية الغرفة الغارقة بفيضان دموعي، ورغم ذلك كلـه فإن شعورا هائلاً بالغضب تملكني وظل يلازمني منذ ذلـك الحين وحتى الآن، فأنا أظن أن ذلك الرجل الذي هو أبـي،

أفسد حياتي بالكامل، وتركني في نهاية الأمر، أتجرع عذابات عزلة المغترين، ووحدة الساخطين على الدنيا، والذين لا يعجبهم العجب ولا حتى الصيام في شهر رجب كما يقول المثل الشائع.

لقد ظل يقنعني دوما، وبطريقته القطيفية المهيمنة والمدغدغة للحواس، وهو يضمني إلى صدره مرة أو يمسد شعري بحنان أبوي دافق مرة أخرى بأن الكمال هو الغاية والهدف في هذه الحياة ولهذا فأنا لا أصلح للرسم والفنون الرفيعة لأني كما قال موهوبة جدا في الرسم " ولكن يا حبيبتي، هل ستكونين يوما مثل محمود مختار أو بيكاسو مثلاً؟، هل تحبين أن تكوني رسامة والسلام؟ فنانة مثل عشرات الفنانين الذين لا ذكر لهم ولا صيت؟ انظري إلى حالتي، أنا صوتي جميل يشبه صوت فريد الأطرش، ولكن هل سأكون يوما مثله أو مثل أم كلثوم؟ لقد فضلت أن أكون مديرا للحسابات في بنك على أن أكون مطربا محترفًا، يقول الناس عنه بعد سماعه: " يعني! لا بأس به على أية حال " وهكذا ووفقًا لنظريته التي لا ترضى بالوسطية أو أنصاف الحلول في الحياة، دفعني لدراسة مواد لا أظن أنني أحببتها

يوما - مثلما لم أحب صورتي في المرآة - اسمها القوانين، وبقيت طوال فترة دراستي لها في كلية الحقوق أشعر بأنني لا أنتمي إلى عالم الحقوق، وأن كل ما أتعلمه في هذه الكلية هو في الحقيقة أساليب رفيعة معقدة ابتكرها البعض للتحايل على البعض الآخر في هذا العالم، كما أن مستقبلي العملي وما حققته بعد تخرجي واشتغالي بالمحاماة، إنما كان يرجع إلى مهارتي في هضم تلك الأساليب والطرق واستخدامها كسلاح رادع للآخرين.

ضغينتي الكبرى والتي طالما حملتها لأبي هو أنه نجح وعلى نحو غير مرئي أو محسوس، في إبعاد كل الرجال الذين حاولوا الاقتراب مني، منذ أن صرت شابة يافعة تلفت أنظارهم، فكلما توهمت أنني وقعت في غرام أحدهم، سرعان ما يداخلني شعور بأنه بالونة ملونة ضخمة ستنفجر وتتبدد عند أول شكة دبوس لها، فالمقارنات بين أي من الذين عرفتهم وبين أبي سرعان ما كانت تتداعى بداخلي، وتحول بيني وبينهم وتتحول إلى قوة مركزية طاردة تنفرني من كل شاب مهما كان، حتى ذلك الذي بدا كامل الأوصاف ذات مرة، أو الرجل الناضج المقطوف لتوه من شجرة،

سرعان ما أقنعت نفسي بأنه ثقيل الظل، روحـه لا تعـرف الخفة، وبدا لي ككائن بلا طعم أو لون أو رائحة كفاكهة هذه الأيام المصنوعة صنعا بالأسمدة وهرمونات الزراعة.

كان أبي يمدني بشحنات حنان خرافيـة وعواطـف أبدية متطرفة، ظلت تلازمني حتى بعد مماته، جعلتني أظـن دوما أنني لن أجدها لدى أي إنسان آخر حتى ولو مات في دباديبي، فالتشكيك في جدية مشاعر الرجال الآخرين، وعدم أخذ التنهدات والزفرات والكلمات الرقيقة الحنونـة وحتـى الدموع أحيانًا بمأخذ الجد، ظل اللواء الخفاق علـى ربـوع روحي طوال الوقت، وقد ظل هذا الأب - وهذا ما ظننتـه طويلاً - مكرسا حياته لي بعد وفاة أمي عندما كنت طفلـة رضيعة لم يتجاوز عمرها شهورا قليلة، ولـم يتـزوج بعـد وفاتها قط، لكن ذلك لم يحل بينه وبين عالم مـن الحبيبـات والعشيقات، بت أدرك وجودهن في حياته شيئًا فشـيئًا كلمـا كبرت ووعيت، وكانت هاتيك المعشوقات من بنات الجيران، أو أخوات أصدقائه، أو حتى خادمات جميلات مستقدمات من الريف كان يمكن إضافتهن إلى مجموعته النسائية الخاصة.

ولعل عينيه الجميلتين العميقتين حقًا، وملامحه الذكورية القوية وجاذبيته الشخصية المؤثرة، كانت مجتمعه وراء كل ذلك العشق وذلك التدله الشديد من النساء به.

غير أن وسامته وجاذبيته هذه لم تكن على قائمة ميراثه الذي تركه لي، وهو ما تلخّص في معاش محدود لمدير حسابات في بنك فرنسي شهير جرى تأميمه بعد ثورة ١٩٥٢ وخمس قطط روميه مخلّطه على أنواع بلديه شاركت في رثائه كما أسلفنا، وكانت هذه القطط الخمس في الأصل زوجا واحدا فقط استوطن شقتنا الأرضية، لكنه سرعان ما استباحها مع ذراريه، إضافة إلى ذلك كانت هناك عمتي الطيبة الثرثارة المصابة بربو مزمن، وبسؤال عن الهدف من الوجود، خصوصا وأن ربوها طالما دفعها لتأدية بروفات وفاة بين حين وآخر؛ ثم هناك قارورة الأسماك الذهبية التي كثيرا ما كان يتفاخر بها المرحوم لأنها مصنوعة من الكريستال التشيكي الفاخر، أهداها له صديق ضابط كان قد سافر في بعثة تدريب عسكرية إلى براغ أيام الود الاشتراكي بين مصر والكتلة الشرقية.

ساقه الصناعية، كانت من دعائم التركة أيضا، فهـي الساق التي منح لأجلها نوط الشرف العسكري، بعد مشاركته كضابط احتياط مجند في حرب ١٩٦٧ وبعد تخرجـه مـن الجامعة، ومن فضائل هذه الساق أنها زكّته للحصول علـى وظيفة في بنك، ما كان من الممكن أن يحصـل عليهـا إلا بالرشاوي أو بالواسطة، لكن أذرع الجيش الممتدة إلـى كـل مكان على الخريطة المصرية وخصوصا بعد أزمة مـارس الشهيرة، كانت قادرة على تعيينه، ليس في بنك مرموق فقط ولكن في أي مكان يرتئيه أيضا، وإلا: إلى أين يذهب ضحايا الحروب الفاشلة من المعوقين والمشوهين لـولا تلـك اليـد الطولى المانحة، والسلطة العاتية الرحيمة لجيش التحريـر؟ عموما لم أضع الوقت وقررت ألا أستسلم للحزن وأن أكـون امرأة عملية، فتصدقت على روحه بالعصـفورين والسـاق البركة، والحوض الكروي بسمكاته جميعا، ثم اقتنعت القطط بالتي هي أحسن أن تسعى في مناكبها ولا تتوقـع منـي أن أطعمها أو أخدمها أو أزيل فضلاتها، وأنني لن أسـمح لهـا باستعبادي واستغلالي بلطفها وظرفهـا وحركاتهـا اللذيـذة ونظراتها البريئة المعبرة مثلما كانت تفعـل مـع المرحـوم

فيضعف أمامها ويرضخ لكل طلباتها ورغباتها؛ ويبدو أن الفكرة التي اقترحتها لم تعجب جماعة القطط اللئيمة كليا فقد استطاعت أن تملي علي شروطها في النهاية، فوافقت على مضض أن تنط وتدخل من شبابيك الشقة الواقعة في الدور الأرضي لتبيت الليل في الداخل، على أن تمضي نهارها خارجا في التسكع والشمس والتصيد في الحديقة الصغيرة أمام العمارة ومناورها والشوارع المحيطة بها. عمتي، على رغم عجرفتها ونزقها، اعتبرتها أثمن ما في تركة المرحوم، خصوصا بعد أن أغلقت شقّتها بالضبة والمفتاح، وجاءت بكامل إرادتها تعيش معي، حتى لا أظل وحيدة غلبانة، لكن ذلك لم يمنع من عقد صداقة وحسن جوار بيننا، فبعد خبرة ما يزيد على ثلاثين سنة من التعامل معها، كنت مؤمنة بأنها الوجه الآخر للعملة التي هي أبي، فهي امرأة - على الرغم من ربوها - دائبة التأنق، محبة للرجال ولا تتورع عن خوض أية علاقة تعن لها بواحد منهم، وقد تزوجت مرتين، وحازت بعد ذلك على لقب مطلقة مزمنة، وهي لا يعجبها العجب، ولا حالي، خصوصا شكلي وطريقة لبسي ورفضي إطالة شعري والزواج، وكانت معاهدتي معها تنص على ألا

تتدخل في شئوني بالفعل أو القول أو التعليق على ما أفعـل وألا تزن على دماغي بمسألة الزواج بعبارات مـن نـوع " لأنك يا خالدة يا حبيبتي كبرت، وسنة وراء سنة يفوتك قطار الزواج وتخنشري ولا يقدر أي رجل أن يبص في خلقتك ".

أما أنا فقد تعهدت بعدم التدخل في أمورها الخاصة، خصوصا في لون شعرها، حتى ولو صبغته بالأحمر الناري، وهو ما كنت أنتقده دائما وأرى أنه غير ملائم لسنها ويحتاج إلى عربة مطافئ كاملة للقضاء عليه، وكذلك ألا أعلّق علـى ملابسها الغريبة ذات الألوان اللامعة الفاقعة والتي تبدو معها وكأنها مروضة نمور في سيرك، وأن أكـف عـن نهرهـا لشربها القهوة بجنون ولتدخينها سجائر كليوباترا طوال النهار والليل وكأنها مدخنة عربة بطاطا، ولفتحها الكوتشينة وبعثرة فلوسها على العرافين والسـحرة وقـراءة الكـف والـودع والفنجان بحثًا عن زوج محتمل.

ورغم كراهيتي لنصائحها، إلا أنني كنـت أضـعف أمامها أحيانًا لكثرة زنّها على أذني فشرعت مرة في إقامـة علاقة عاطفية مع شاب زميل لي بمكتـب المحامـاة، لكـن سرعان ما نجح أبي في إفسادها وهو راقد في تربته، فـرغم

انجذابي الأولي لهذا لزميل ورغبتي فيه، إلى أن مشـاعري تجاهه أخذت تبهت يوما بعد يوم. كنت أعقد مقارنات بينـه وبين أبي تتعلق بعشرات التفاصيل في شخصيته وعلاقتنـا، أدت في النهاية لأن أصنّفه وفقًا لها فلاحا جلفًا لا يعرف من المدنية غير القشور، فحذاؤه ليس نظيفًا بالقدر الكافي وهو لا يستعمل مزيلاً للعرق، ناهيك عن أنه لا يضع عطرا مهمـا كانت المناسبة، حتى ولو كانت الذهاب إلى السينما، ثم إنه لا يتأنّق في ملابسه مثلما كان أبي، ولا يمنحني تلك الأحاسيس التي طالما أغدقها علي أبي بلا حدود والتي أشعرتني بأنوثتي دوما، ولم يعاملني مثلما كنت أرى أبي يعامل النساء: المرأة التي هي كل نساء الأرض، كاملـة الأوصـاف والخصـال والمحاسن فلا قبلها ولا بعـدها جـادت الأرض أو سـتجود بمثلها.

لقد أشعرني أبي ومنذ بداية طفولتي بـأنني الزهـرة الوحيدة في حديقته وأنني المرأة الصغيرة الأنثـى بـالفطرة، فكان يحرص على تمشيط شعري بنفسه ويتفنن فـي ابتكـار تسريحات تلائم خصلاته العصية المتمردة وتبـرز ملامـح وجهي، وعندما بدأت طور المراهقة، وبدأ جسـدي يتشـكل

مفصحا بجلاء عن معالم حواء الخالـدة جلـب بنفسـه لـي حمالات صدر غالية وراقية النوع حتى لا تفسد وتترهـل ـ كما قال مازحا معي ـ الرمانتان النضرتان علـى الغصـن الرطيب، ثم إنه أصر على انتعالي أحذية بكعوب عالية، كنا ندور سويا على مدى ساعات في الشـوارع علـى المحـال نتفحص ما في واجهاتها الزجاجية، لننتقي منها ما يلائم قدمي وألوان فساتيني، وذلك دون أن يعبأ بالوقت أو يستجيب لمللي وضيقي ونفاد صبري، ورغبتي في العودة السـريعة مـرة أخرى إلى البيت.

كان ـ رحمه ا ـ يصطحبني معه أحيانًـا للقـاء واحدة من عشيقاته، لتساعده في ابتياع ملابس متميزة لي من محلات أنيقة لا يعرفها هو، وكنا نخرج من هـذه المحـلات فندخل ثلاثتنا إلى السينما أو نجلس بعض الوقت، في مقهـى أو مشرب لنحتسي شيئًا، وساعتها كان أبي يصر عامدا على تدليلي ومدحي ونعتي بأنني أجمل فتاة في هـذا العـالم، ولا يبخل بكلمات دون ذلك على السيدة الجالسـة معنـا وكأنـه يخشى أن يستثير غيرتها وحنقها.

عندما كنت أرجع إلى البيت بعد ذلك، وأتطلع إلـى المرآة مزهوة، وقد رحت أرتدي ما ابتاعه لي، كان سطحها اللامع المصقول يفحمني بعبارة قصيرة مقتضـبة "إيـاك أن تصدقيه!".

وهكذا أفسد أبي علاقتي بذلك الشاب، وعلى طريقة " إدارة الصراع عن بعد " ،ولكن وللحقيقة أيضا، فـإن ذلـك الشاب أذهلني بعدم درايته بما اعتبرته دائما من البـديهيات الأولى، ووفقًا لما كان عليه أبي، فقد فجعني ذلك الفتى بعـد أن اكتشفت أنه يظن أن لون بلوزتي الباذنجـاني إنمـا هـو نبيذي، كما توصلت إلى حقيقة مفادها أن أنفه بلا وظيفة، فهو لا يميز رائحتي الخاصة، رائحة جسدي الممزوجة بعطـر " دموع الملائكة " الذي عودني أبي على إدمانه وكان يقول: " إنه يمنحك سحر الملائكة الخرافي، ملائكة الأرض المطيبـة بدموع نادرة لكائنات سماوية غامضة، تخبئينها خلف حلمتي الأذنين وفي مغارة ما بين النهدين، فتتحـد كيميـاء الجسـد النابضة بشرايينه عند تلك المواضع وعند الرسغين، لتجـذب كيمياء رجل واحد أثير بجاذبيته الخارقة، رجل يظل أسـيرا لذلك العطر مدى الحياة ".

لم أكن على اقتناع كامل بنظرية أبي العطرية هذه كثيرا، بل وكانت تشعرني أحيانًا بأنه رجل داعر بالفطرة طالما بشر بالخطيئة وأغوى النساء وأوقعهن في حبائله، حتى بعد فقده لساقه، بل واستغل هذه الساق لتضفي عليه شيئًا من الرومانسية والتراجيديا الغرامية المؤثرة، لكن ها أنا أتعلل بهذه النظرية العطرية الأبوية، وأستخدمها أداة للإجهاز على علاقتي بهذا الشاب المسكين، الذي لم يفهم أبدا سببا لانقطاع علاقتنا المفاجئ، ولفتور مشاعري تجاهه، فلقد كان من الصعب عليه أن يفهم كيف أن أبي ما زال مصرا على إقناعي حتى بعد وفاته، بأنه الرجل الوحيد المطلق الرجولة في هذا العالم، وأن كل من عداه من الرجال سيظل في حدود النسبي، وأظن أنني لهذا السبب بت أكرهه ... أكرهه إلى حد البكاء عليه كلما تذكرته بين الحين والحين ... ولم لا ... ألم يفسد حياتي.

وعلى الرغم من تأثير أبي الهائل على حياتي وهو الرجل الأم، والرجل الأب، والرجل المثال الذي يصعب الخروج عنه، إلا أنني ـ والحق أقول ـ تأثرت برجال آخرين في حياتي، وبعد مماته، صحيح أن هؤلاء الرجال،

كانوا مختلفين عنه مائة وثمانين درجة، وصحيح أنهـم لـم يكونوا مثله مصرين على امتلاكي واحتوائي مثلمـا فعـل، وعلى الرغم من أنهم أثّروا في على نحو مغاير تمامـا، إلا أنني لم أستطع الفكاك من إسارهم، لقد أسروني إلـى الحـد الذي دفعني للكتابة عنهم ذات يوم، وأنا التي ما فكرت فـي الكتابة، بل وكنت أكرهها كراهيتي للبن والحليـب والسـمك وكتابة موضوعات الإنشاء والتعبير في مادة اللغة العربيـة عندما كنت تلميذة في المدرسة، وحتى كتابة الخطابات كنـت أكرهها كذلك ولم أكتب منها إلى القليل عنـدما اضـطرتني الظروف، فكتبت لأخي غير الشقيق الذي عاش مع أبيه فـي هولندا منذ سنوات بعيدة، وكانت تلك الخطابات نوعـا مـن أنواع التواصل بيننا، وهمزة وصل لرحم انقطعت صلته منذ زمن بعيد، خصوصا بعد وفاة والده ووالدي.

اشتغلت بعد تخرجي بشهور قليلة في مكتب محامـاة معروف بوسط البلد، كان صاحبه صديقًا قديما لأبي من أيام الدراسة، ونديمه في شرب الخمر ولعب القمار، وكان الرجل في مطلع شبابه من المناهضين للاستعمار الإنجليزي، شارك في جمعيات سرية مسلحة قامت باغتيال عدد مـن عسـاكر

الإنجليز، وقضى عدة سنوات في السجن أيام الملكية لهذا السبب، وقد خرج بعدها ليفتح مكتب المحاماة هذا، وهو شقة في عمارة ضخمة تعود إلى الزمن الإمبريالي كانت أحد أملاك والده الثري، وقد جرى تأميمها بعد الثورة واحتفظ الرجل بالشقة كمكتب، وكان من مزايا عملي في مكتب المحاماة هذا، هو أنني استطعت، ووفقًا للقانون الاحتفاظ بمعاش أبي بعد وفاته، باعتباري أعمل في قطاع خاص، وقد ظل هذا المعاش هو المصدر الأساسي لدخلي المحدود، فما أتقاضاه من راتب نظير عملي بالمحاماة ضئيل ومتناقص دوما بسبب الارتفاع المزمن في أسعار السلع والخدمات.

ذات يوم وأثناء عملي في المكتب، تعرفت على رجل، نحيل قصير، له أنف ضخم وعينان شديدتا الاتساع بالنسبة لمساحة وجهه الصغير، وذلك من خلال قضية وكّلت للاشتغال فيها مع زميل لي بالمكتب. كان محمد عبد الحفيظ بركات قد جاء إلينا ؛لأنه وجد من أشار عليه بطلب تعويض من أمن الدولة في مصر لقاء ما لاقاه من معاناة وتعذيب. هو متزوج ويعول أسرة كبيرة العدد مكونة من سبع بنات أصر على إنجابهن بدأب واحدة تلو الأخرى، مراهنًا على القادر

الجبار أن يأذن ذات يوم وتكون واحدة منهن ولـدا، ولكـن محمد عبد الحفيظ بركات لم يكسب الرهان، فاضـطر إلـى اعتزال لعبة الحفاظ على النوع البشري، ولربما اضطر إلى ذلك بعدما أحالته الطبيعة إلى الاستيداع قصرا، مدخرة قوته وصحته ووقته، في سبيل قضايا أهم تتعلق بالوجود ولـيس بالنوع، إذ كان عليه أن يعمل ثماني عشرة ساعة يوميا، سبعا منها كعامل في الشركة العامة للحاصلات الزراعية، والبقيـة في تنظيف شقق وبيوت بعض موظفي وموظفـات الشـركة الذين استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وذلك حتى يتمكن محمد عبد الحفيظ أن يلقم سبعة أفواه مفتوحة بالخبز والطعام، إضـافة إلى فم أمه المسئول عن معيشتها والتي تقيم معه بالبيت ذاته، وفم زوجته، فهي من المسـتحيل أن تعمـل خـارج البيـت لتساعده وهي المرأة المسئولة عن المطبخ والكنس والغسـيل لعشرة أشخاص بالتمام كل يوم. ذات يوم، شعر محمد عبـد الحفيظ بركات ووفقًا لأقواله، بأنه شارب من كيعانه، والدنيا في عينيه أضيق من خرم إبرة، فطلبات العيال فـي زيـادة، وأمه أصيبت بالفشل الكلوي وتحتاج لغسيل الكلية، وهو نفسه لم يعد بقادر على ممارسة المتعة الوحيدة المتبقية لـه فـي

الحياة بعد فقدانه قدرته الجنسية، وهي متعة شراء كيس لـب أبيض بخمسين قرشًا وقزقزته عند انتهاء شغله بعد الظهـر كل يوم، والسير إلى البيوت التي يعمل بها في ضواحي البلد، فلما فكر وفكر، وقلّب أمره على كل وجه، وحسب حسـبته مرارا، ووجد أنها فاشلة دوما وبلا جدوى، وتوصل إلـى أن حالته ميئوس منها في هذا العالم، ولا سبيل أمامه لمواجهـة أعباء الحياة وكل هذا الهم الكبير الملقى على عاتقـه، قـام ودون أن يدري كيف فعل ذلك - وفقًا لأقوالـه - بشـرب سائل التوكسافين وهو مبيد حشري فعال ويستخدم على نطاق واسع للقضاء على دودة القطن، ولكنه مجرب ومختبر علـى نطاق واسع أيضا في الريـف كأفضـل وسـيلة للانتحـار، وأرخصها أيضا، إضافة إلى توفره في الأسواق، لكن يشـاء الحكيم العليم أن تفشل عملية محمد عبـد الحفـيظ بركـات الانتحارية الكبرى فشلاً مدويا، إذ يبدو أنه لم يخطط لها كما يجب، فقد شاهده فلاحان بالصدفة، كانا يعبران الشارع، وهو جالس تحت شجرة الكافور على الطريق الزراعـي، بينمـا يشرع في تجرع أولى جرعاته التوكسافينية، فأسرعا إليـه، ودفعا بكوز التوكسافين بعيدا عن فمه، وعلى إثر ذلك شـاع

الخبر في البلد، مما أدى إلى أن يتلقى محمد عبـد الحفـيظ بركات توبيخًا ملائما يليق بالمناسبة من زوجته المصـدومة من هول الخبر، وابنته الكبرى التي لـم تصـدق، ولامتـه بدورها قائلة " أنت جرى لعقلك شيء يا بابا "، ثم توبيخ أمه التي جاء دورها بعد ذلك فراحت تتصعب وتبكـي مولولـة وصوتها الخشن المحشرج ينعته بأقذع الشتائم ثم " يا خسارة تربيتي لك يا محمد، يا عرة الناس، يا جلاب الجرسـة، يـا فاضح أمك كل يوم والتاني"، ثم إنها صرحت له وأمام كـل أفراد الأسرة وعلى طريقة مغايرة ـ بـالطبع ـ لمـذيعات التليفزيون القومي، بأنه أناني، حقود، حسود، طماع، ويريـد أن يستحوذ على أعز ما تملك: كفنها الذي جاعت وصـامت أياما طويلة على مدى عمرها، بعد أن مات أبـوه، وظلـت تضع القرش على القرش وتدخر كل مليم أحمر لشرائه حتى يسترها يوم تقف بين يدي ا عندما يواتيها أجلها لتبعث في اليوم العظيم.

آخر توبيخ تلقاه محمد عبد الحفيظ بركات، كان مـن شيخ جامع البلد، الذي عنفه بكلمات سريعة، ثـم رسـم لـه كروكي صغيرا لما سوف يصيبه في الآخـرة، وبالكلمـات

بالطبع، فأولاً "ستدخل جهنم بالخطوة الســريعة يــا محمــد، وتتشوي في نارها وكأنك كوز ذرة صيفي، وبعــدها يشــيط جلدك ولحمك، ولما تصفي جثتك بالتمام تقدم عظامك الباقية لكلاب جهنم جميعا لتنهش فيها، ثم إنك لن تعرض على جنة وستحرم حرمانًا نهائيا لا عودة فيه، من أنهار العسل واللــبن وفواكه الجنّة وخصوصا التين والعنب والبلح الرطب "، ولما كان محمد عبد الحفيظ بركــات جائعــا جــدا أثنــاء ذلــك، وعصافير بطنه لا تكف عن الزقزقة مطالبة بأية لقمة، فلــم يستطع تحمل استماع المزيد من هذا، وراح يبكــي بحرقــة ونهنهة كالعيال، حتى أن شيخ جامع البلد، اضطر إلى إسكاته ومواساته، وهو أن يقوم أولاً بالمداومة على الصلاة والصوم والاستغفار كل يوم مائة وخمسين مــرة، وثانيــا التصــدق بحصيرين أخضرين على الأقل للجامع، وبأنجر فتة ولحــم، حتى ولو كان من لحم الرأس الرخيص ـ وذلك مــن بــاب التيسير، وعند ذلك الحد شهق محمد عبد الحفــيظ بركــات شهقة طويلة، ودخل في نوبة بكاء هســتيرية جديــدة، لعــن خلالها بسره شيخ الجامع، وجدوده ومن خلفه، وكذلك زوجته راضية أم البنات ، وابنته الكبرى الفاجرة، والتي رآها مرارا

واقفة تحت شجرة النبق على الجسر في آخر البلد وهي تتدلع مع كاتب بنك التسليف الأصلع وتحاول إغواءه، وكان هـو، أباها، يغض الطرف عن ذلك أملاً في أن توقع الشـاب فـي حبائلها ويتزوجها، ثم لعن في سره أيضا أمه التي ما قالت له كلمة طيبة في وجهه يوما منذ صغره، بل على العكس طالما بخست كل ما يفعله، وقللت من شأنه ووضعته دائما في أسفل سافلي الخلق جميعا، وقبل ذلك كله، تمنى أن تحل لعنته على خضير البكري، جزاز الغنم، وزين الدفراوي اللذين أنقذاه من الانتحار.

يأت المسكين بعد ذلك - ووفقًا لأقواله - يتقلب في سريره دون أن يغمض له جفن وكأنه يتقلـب علـى فرشـة جمر، وقد داخله شعور عارم بالذل والقهر من كل الأطراف، وفي صبيحة اليوم التالي، انتظر حتى فتح مكتب التلغـراف العمومي بالبلد أبوابه، وتوجه إليه، ولما كان جاهلاً بـالقراءة والكتابة، ولم يعرض على مدرسة قط، فقد أملى بنفسه علـى العامل المختص الجالس في غرفة التلغراف الضيقة رديئـة التهوية - شباك واحد صغير - ومتهالكة الجدران الرسـالة التالية:

السيد/ رئيس الجمهورية

السيد/ رئيس الوزراء

أنا محمد عبـد الحفـيظ بركـات، أعمـل بشـركة الحاصلات الزراعية، وأعول أسرة كبيرة مكونة مـن سـبع بنات، بالإضافة إلى جماعتنا راضية عبد النبي محمود، وأمي الكبيرة منصورة البلاح وراتبـي فـي شـركة الحاصـلات الزراعية ما زال ١٢٠ جنيها قبل الخصم " و ... فجأة، وجد عامل التلغراف أن محمد عبد الحفيظ بركـات، بـدأ يرفـع صوته غاضبا وهو يضيف الفقرة التالية:

" يا كفرة يا ظلمة، يا مفتريين، يعنـي يرضـيكم أن أسرق؟ أنهب؟ أبيع بناتي في السوق؟ أسرح الولية أم العيـال في البطال؟ أم أمد يدي وأطوف في السـكك وأقـول يـا محسنين " ثم ووفقًا لرواية عامل التلغـراف، فـإن سـيلان الشتائم التي يعاقب عليها القانون، انثال من فم محمـد عبـد الحفيظ بركات، وقد بدا في حالة هياج شديد، حتى أن عامـل التلغراف أخذ يهدئه وقدم له كوبا من الماء وسيجارة رفضها محمد عبد الحفيظ؛ لأنه لا يدخن، وقد أنكر محمد عبد الحفيظ

أنه قال هذه الشتائم بعد ذلك، لكن عامل التلغراف دونها - كما قال - وكتبها دون زيادة أو نقصان، ثم أوهم محمد عبد الحفيظ بأنه أرسلها إلى الجهات المعنية، لكنه في الحقيقة اتصل برجال أمن الدولة، الذين جاءوا بسرعة، ليأخذوا محمد عبد الحفيظ بركات، والنهاية كانت قضية تعذيب موجودة تفاصيلها في الأوراق التي بين يدي للدراسة والفحص والدفاع عن الرجل وطلب تعويض ملائم له من الحكومة ورجالها خصوصا وأن أمن الدولة تعامل محمد عبد الحفيظ بركات باعتباره واحدا من أعضاء الجماعات الإسلامية المحظورة؛ لأنه كان يرتدي وقتها جلابية وشبشبا وذقنه طويلة لأسباب غير دينية على الإطلاق.

وقد أسفر تعامل أمن الدولة معه لانتزاع اعترافات منه على مدى أسبوع - عن كسر مضاعف في يده اليسرى الحيوية بالنسبة له - محمد عبد الحفيظ أعسر منذ الميلاد - وشرخ في عظم الترقوة، وقد اتضح بالفحص الطبي بعد ذلك، أن ما ساعد على حدوث هذه الإصابات، هو أن محمد عبد الحفيظ مصاب بهشاشة العظام أصلاً، وأقل ضربة أو خبطة في جسمه تكون آثارها مدمرة.

عموما كانت قضية الرجل الغريبة هي ما قادني إلى التعرف على عالم غريب آخر، بعيد عني تماما، لم أفكر في تفاصيله يوما. لقد كانت قضية محمد عبد الحفيظ بركات هي بداية خروجي من القوقعة، فقد اكتشفت خلال بحثي تفاصيل هذه القضية، أنني عشت حياة رخوة، محدودة، بجدران بيتي وجدران الجامعة التي تعلمت فيها وعالمها الضيق المحصور ولم يكن يبتعد كثيرا عن عالم البيت أو عما يلامس الجلـد. بالتأكيد كنت أدرك أن هناك كثيرا من الفقراء، أو أناسا أفقر مني ـ على الأقل ـ وليس لديهم ما لدي، ولكن محمد عبـد الحفيظ بركات قادني إلى المعنى الحقيقي للفقر: الذل والقهـر والهوان، وجعلني ألامس ذلك ملامسة قوية، وأستشعر معاناة أولئك الذين يعيشونه ويتمرغون فيه، وربما كانـت قضـيته تحديدا هي التي جعلتني أوافق في النهاية على الانتماء إلـى واحدة من جمعيات حقوق الإنسان، رغم أن " نهال " صديقتي وزميلتي في العمل بمكتب المحاماة، حاولت قبل ذلك مـرارا إلحاقي بواحدة من هذه الجمعيات التي تنتمي إليهـا لأن ـ كما تقول ـ " التجاوزات زادت بشكل لا يمكن تخيلـه فـي موضوع التعذيب وتعدي أجهزة الأمـن علـى المـواطنين

وتجاوز القواعد الدستورية، ثم إننا يا خالدة شغلتنا الدفاع عن حقوق الناس ومصالحهم، ثم أن مصطفى كامل كانت مهنتـه المحاماة، وكذلك محمد فريد، وكل من كان له محاولة حقيقية في عمل وطني كبير لينهض بالبلاد ومن فيهـا وخصوصـا، الناس الغلابة ومعظمهم لا يعرف شـيئًا عـن القـانون أو الدستور وحقوقه المكفولة من خلال نصوصه ".

كنت أبتسم عادة عندما تخطب نهال خطبا من هـذا النوع، طالما سمعتها تكررها على مسامعي، فأنا أكره الجمل الكبيرة والكلمات الرنانة وقد سمعتها لسنوات طوال من خلال الراديو والتليفزيون، وقرأتها مرارا في الصـحف، فـالجميع يتحدثون عن الوطن، وعن المواطنين، وكلمات من نـوع " يجب"، " ومن الضروري " هي لوازم مزمنة لما يقولـون، و لكن ماذا يفعلون للوطن؟ أو ماذا يفعلون للناس وللمواطنين؟ فهذا ما لم أعرفه أبدا، وطالما كنت أردد لنفسي بعد سـماعي أو قراءتي لكلام من هذا النوع: الوطن بحاجة إلى فعل وليس بحاجة لكلام.

انتميت إلى جمعية " نصرة الحق الإنسـاني "، فـي النهاية، ليس بفضل خطب نهال ولكن بسبب تعـاطفي مـع

المسكين محمد عبد الحفيظ بركات فقد تعذب الرجل وحصلت له غاية البهدلة بسبب رغبته الإنسانية البسيطة فـي قزقـزة كيس لب بخمسين قرشًا وسد جوع أسرة كبيـرة لا يكفيهـا مرتبه الشهري لشراء عيش حاف.

ها أنا أركض حاملة حقيبة يدي في مطار أمستردام، المدينة الهولندية التي أزورها لأول مرة بناء على دعوة من أخي، بعد أن تكفل بدفع ثمن بطاقة السفر، فوجدتها جمعية " نصرة الحق الإنساني " فرصة لتمثيلها في مـؤتمر عقدتـه. كنت أسارع الخطى، لاهثة، صاعدة، هابطة داخل ممـرات المطار الضخم، حتى وصلت إلى البوابة A33 حيث مكـان إقلاع الطائرة المصرية المتجهة إلى القـاهرة لأجـد كلبـا بوليسيا ضخما في استقبالي عند بوابة القاعة الفسيحة المكتظّة بأسلحة على أكتاف جنود مدججين يحاصرون ممرا ضـيقًا محددا بشريط أسود يمر عبره الـداخلون إلـى كـاونترات موظفي شركة الطيران القـائمين بإنهـاء إجـراءات سـفر الركاب. كنت قد لاحظت مشهدا مماثلاً أثناء مروري داخـل المطار وأنا أعبر بعض الأماكن عند قاعات المسافرين على الطائرة اليمنية والطائرة السودانية، والسعودية والجزائريـة،

وكل الدول المصنّفة كراعية للإرهاب أو مصدرة لـه وفقـًا لوصف الإدارة الأمريكية كما فهمت من الشـابين الـواقفين أمامي في الطابور انتظارا لدورهما فـي إنهـاء إجـراءات سفرهما.

وقفت أتأمل موظفي الشـركة والجنـود والكـلاب ليداخلني شعور مفاجئ بأن ما أراه إنما هو جزء مـن فـيلم هوليودي سخيف، فقد بدا المكان أشبه بثكنة عسكرية، أكثـر منه بقاعة مؤدية على طائرة على وشك الإقلاع، وكنت خلال ذلك أحاول التقاط أنفاسي، متابعة بعيني جمهور المـرتحلين غير المبالين بالحالة العسكرية التي هم موضـوعها، بينمـا يندفعون واحدا إثر آخر داخل الأنبوب المؤدي إلى الطائرة، سرت وراء الناس بعد إنهـاء إجراءاتـي بشـعور القطيـع مجرجرة أقدامي المتعبة حالمة بلحظة ألقي بجسدي خلالهـا على مقعدي المخصص بالطائرة، (١٦ ب) والمدون علـى بطاقة تعليمات الرحلة وعندما صرت فـي الطـائرة فعـلاً، فوجئت بأن (١٦ ب) المأمول قد تم احتلاله من قبل رجـل عجوز بدين، يجلس إلى جانب امرأة تصغره قليلاً لكنهـا لا تقل عنه بدانة، وما إن رآني أطلب منه إنهاء حالة الاحـتلال

لمعقدي، شاهرة في وجهه بطاقة الجلوس المدون عليها رقـم مقعدي حتى بادرني بابتسامة تليفزيونية لا تخلو من بـراءة الشيخوخة قائلاً بلطف وبطريقة مصرية لينة معهودة:

ـ حضرتك (١٦ ب). طيب ... ممكن أن تعقدي مطرح " طنطك ". هي (١٧ أ) وأنا قلت لروحـي خليهـا قاعدة جنبك يمكن أن تعوز حاجة لو سمحت يعني.

على رغم أنني لا أقبل التنازل عن حقوقي عـادة ـ هكذا علمني أبي ـ مهما كانت بسيطة، واعتبرت أن ما قاله نوعا من السخافة أو " السلبطة " كما يقال، إلا أنني وبمجرد أن لمحت (١٧ أ)، وكان مقعدا مجـاورا للشـباك، حتـى أومأت برأسي موافقة على أن تبقى " طنطي " بجوار رجلها، لأن (١٦ ب) لم يكن مجاورا للنافذة، وأنا أحب الجلـوس إلى جوار النافذة في المواصلات العامة كالقطار والأتـوبيس والمترو، فما بالك بالطائرة؟

سارعت بإدخال حقيبة يدي الضخمة والتي كنت قـد ابتعتها قبل سفري من مصر داخل الرف العلـوي للطـائرة لأجلس بعد ذلك على (١٧ أ) وأربط الحزام.

بعض الناس يفضل القراءة في الطائرات، الـبعض الآخر يفضل سماع الموسيقى ومشاهدة الأفـلام، أمـا أنـا فاعتبرت ركوب الطائرة حالة من حالات السجن الاختيـاري الإجباري في آن معا. حالة أشعر فيها أن الزمـان والمكـان يتوحدان عند نقطة الصفر، ليصبح المرء بعد ذلك وكأنـه لا هنا ولا هناك " وهل السماء مكان؟ ". ثم إن حيـز الجلـوس المحدود الذي لا يسمح إلا بفرد الساقين قليلاً، يـدفعني إلـى تفضيل النوم في الطائرة والحلم بـأرض، أيـة أرض أقـف عليها و- يا حبذا لو كانت أرض الوطن - لأنهـا سـتكون أفضل من تلك الحالة الهوائية الحتمية، لذلك، ربطت حـزام الأمان، ونظرت في ساعتي فوجدتها الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق ليلاً بتوقيت أمستردام.

ووضعت مقعدي في وضعه المستقيم وفقًا للتعليمات، ثم أسندت رأسي إلى مسنده العالي، مغمضـة عينـي تأهبـا لسبات مأمول وأحلام سعيدة بأنني داخـل مـدينتي الأثيـرة القاهرة.

سرعان ما شدني فضولي إلى حركة من توقعته جارا على المقعد المجاور لمقعدي، فتحت عيني لألقي نظرة: شاب

طويل نحيل، ما إن انتهى من إدخال لسان الحزام الحديـدي في عروته حتى ابتسم ابتسامة عريضة ملتفًا إلي هامسا:

- هاللو.

- هاللو.

رددت تحيته مشفوعة بابتسامة لائقـة، ثـم أسـدلت جفني ستارين على المشهد الطائر الخاطف، وقـد أرجعـت رأسي إلى مكانه الأول على مسند الكرسي، ودون أي تعليق داخلي على الجار السماوي المستقر إلى جانبي تـوا كانـت الطائرة قد بدأ صخب محركاتها العنيـف يتعـالى اسـتعدادا للإقلاع، بينما إذاعتها الداخلية تصـارع الضـجيج لتصـل بألحان أغنية قديمة لعبد الوهاب إلى مسامعنا، وكنت بدوري أجتهد لأقلع إلى مملكة النوم المشتهاة بأسرع ما يمكـن مـن خلال اشتباك مع عمتي في حوار سريع عـن أحـذيتها ذات الكعوب العالية والمقدمات الضيقة، المدببة، والمسـببة لآلام الساقين وتورم المفاصل، وفجأة قطع حوارنا وجه جـاري، الذي طالعته منذ قليل، على طريقة مذيعي بـرامج الإذاعـة والتليفزيون عندما يقطعون البرامج فجأة ليقولوا " هنا القاهرة

"، أو يقاطعون ضيوفهم دون أن يسمحوا لهم بإكمال ما بدأوه من كلام وعرض وجهات نظرهم.

تخيلت وأنا مغمضة بأنني قد رأيت هذا الوجه مـن قبل، تلك البشرة الداكنة بلون البن المحمص، والأنف القصير المنفرط على صفحة الوجه قليلاً، ثم ذلك الشعر الكثيف جدا وقد سال نعومة على الجبهة، ثم تلـك الشـفتين الـرقيقتين المنفرجتين عن أسنان إفريقية قوية بيضاء، رائقة ومتراصة، ولما كنت في البرزخ الواصل بين الصـحو والنـوم، فقـد تخالطت تلك الملامح مع ما عهدته من ملامح سـيد الزبـال الذي أخبرني ذات مرة بينما كنت أخرج له كـيس الزبالـة الأسود، بأنه رئيس فرقة موسيقية لإحياء الأفراح مكونة من إخوته الثلاثة وبعض أقاربه، وأنه في الخدمة لو طلبت منـه إحياء أي فرح، ثم سرعان ما قمت بتركيـب هـذا الوجـه بملامحه وقد أيقنت أنها مألوفة إلي جدا، على محصل قطار المرج القديم الذي أزمنت رؤيته لمدة ثلاث سنوات دراسية، كنت خلالها أنتقل بالقطار من محطة عين شمس حتى محطة سراي القبة حيث كانت تقع مدرستي الثانوية، ثم ها هو أبي يظهر فجأة طالبا مني أن أمسك بواحدة من قططه ليتمكن من

إسقاط بعض من قطرات كلورامينفينكول في عينيهـا لأنهـا عمصت وأرمدت.

يبدو أنني أفقت على صـوت مضـيفة الطـائرة إذ سمعتها تقول:

ـ لحما ... أم سمكًا ـ أم فراخًا؟

اعتدلت في جلستي بعد أن أفقت وأنزلت رفّ الطعام المثبت على الكرسي أمامي، وعندما كررت السؤال قلت:

ـ سمكًا

أخذت أتأهب للأكل بعد أن أمدتني المضيفة بوجبتي، بينما بادرني جاري: " بشهية طيبة "، ثم وبينما أمسح يـدي بمنديل مصر للطيران المعطر، سألني فجأة:

ـ أنت مصرية؟

ـ نعم ... وأنتَ؟

ابتسم بسعادة، وقال: أنا مكسيكي مصري.

ـ فعلاً؟!

هممت بالتعجب في التساؤل، وخمنت: ولم لا؟! في السنوات الأخيرة خرج من مصر آلاف، بل ملايـين النـاس

بحثًا عن الرزق ولا عجب إن قابلت شخصا تزوج من بـلاد الواق واق وأنجب طفلاً مصريا واق واقي.

ابتسمت لفكرتي ووجدت جاري يبتسم بسعادة أكثـر وكأنه وجد شخصا يقول له كلاما يرغب في قوله، لأنه راح يتابع بسرعة ودون توقف:

أنا مكسيكي، لكني أعيش وأعمل في ألمانيا، كنت في رحلة عمل إلى أمستردام وأنا ذاهب إلى مصر الآن للسياحة و...

قال كلاما كثيرا بعد ذلك لم أفهم معظمه فهو يـتكلم الإنجليزية بنسبة ٣٠% على أفضل تقدير وإنجليزيتي لا تزيد على ٥٠% وهذا معناه أننا نتواصل بحوالي ٨٠%، وإذا مـا حذفنا ١٠% للهجته وسرعته تصبح المحصلة النهائية ٧٠%. قلت لنفسي لا بأس وخلاصة الكلام الكثير الذي فهمته هو أنه مكسيكي ألماني، لكني لم أفهم تماما حكاية أسرته المصـرية والتي يرغب بزيارتها، لذلك سألته وأنا أواصل التهام مهلبية مصر للطيران المليئة بالنشا والسكر والشحيحة اللبن:

ـ أنا لم أفهم. يعني أهلك في مصر؟. جـاءوا مـن المكسيك ليعيشوا في مصر؟!

ـ لا. هم مصريون يعيشون في مصر.

ـ إذن. أنت مصري!

ـ لا. أنا مكسيكي ولكن أهلي في مصر.

يا إله الكون. ويا لسوء تعليم اللغات الأجنبيـة فـي مدارس مصر الحكومية. قلت لنفسي وتابعت له:

ـ كيف تكون مكسيكيا وأهلك في مصـر؟: وكـدت أضيف له: " فيما لا يزيد على جملتـين وبلهجـة واضـحة مفهومة ".

ـ ويل Well أريد أن أوضح لـك، أن جـد أمـي مصري، وقد جاء إلى المكسيك وأحب جدتي، جـاء وقـت الحرب وأنا لا أعرف عنه شيئًا، وأريد أن أرى أسرة جـدي وأعرفهم.

شكل جاري الطائر ينبئ بأن عمره لا يتجاوز نهايـة العقد الرابع والحروب التي أعرفهـا هـي حـرب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ وقبلها جميعا حرب فلسـطين ١٩٤٨ مـع " إسرائيل "، فهل يمكن أن يكون جده قد حارب في أي منهـا؟ مستحيل منطقيا. غبية ـ قلت لنفسي ـ ولكن هناك الحـرب الكونية الأولى ١٩١٤، والثانية ١٩٣٩ ... إذن سأسال:

ـ لا. لا الحرب القديمة. رد على سؤالي.

ابتسمت مرة أخرى في أعماقي وقلت لنفسي: فـيلم هندي طويل بلغة إنجليزية ركيكة ويحتاج إلى ترجمة فورية، فأنا لا أعرف ماذا يقصد بالحرب القديمة: هل هـي حـرب البسوس؟ حرب داحس والغبراء؟! كدت أضحك فعلاً، فالأخ المكسيكي فهلوي وينوي بيع المياه في حـارة السـقايين، إن وراء ما يقوله حكاية أخرى، حكاية أكبر ربما تكشـف عـن تفاصيلها ساعات رحلتنا الهوائية التي ما يزال أمامها ما يزيد على الثلاث ساعات، ولكن فلنبدأ بالتعارف.

ـ رودلفو فردينانـدو

ـ خالدة مصطفى إسماعيل

جاءت المضيفة مرة أخرى ... قصـيرة سـمراء، متأففة لسبب غير مفهوم كأنها تؤدي عملها جبرا واضطرارا فطلبت قهوة وطلب رودلفو شايا، وبدا الأمر لـي ـ وعلـى رغم كل شيء ـ طريفًا ومسليا ومطيرا للنوم من عيني وهو يعرفني بنفسه، مهندس ميكانيكي يعمل في شـركة سـايمنز الألمانية العملاقة، التحق لفترة بثورة الهنـود فـي جنـوب المكسيك، لكنه في النهاية جاء ليعيش في ألمانيا (طبعا لـم

أسمع يوما عن ثورة الهنود التي قال أنها قامت سـنة ١٩٩٣ في جنوب شرق المكسيك، وهل نسمع أو نقـرأ مثـل هـذه الأخبار في إعلامنا).

ثم إن رودلفو خرج - كما قال - بعدها من الـبلاد نهائيا ويعيش في ألمانيا.

حكايته ملتبسة ومتشابكة، لكنها لم تمنعني من تقـديم حكايتي البسيطة بدوري: محامية يتيمـة الأبـوين فـي أول حياتي العملية، وكنت في هولندا لزيارة أخي غيـر الشـقيق وحضور المؤتمر عن حقوق الإنسان. (ابتسم رودلفو لسبب، دون أن يعلق، عندما ذكرت حقوق الإنسان). ثم إنه جرنـي إلى ثورة هنود المكسيك التي هددت الحكومة المركزية وقتها وشارك فيها هو ضمن عدد من المثقفين الذين رفضوا كـل الأشكال السياسية الموجودة هناك: اليمين واليسار و...

قاطعته بدوري:

- ولكنك مكسيكي ولست هنديا؟

- لا. أنا هندي مكسيكي. الهنود هم الأصل، جـدتي كانت نصف هندية و ...

نصف هندية؟. ساءلت نفسي وقلت:

ـ لكنك تقول أن جدك مصري؟

ـ آه. هي تزوجت بجدي المصري عندما جاء وقت الحرب القديمة.

لم أقاوم فقلت مازحة:

ـ نصف هندية. طيب والنصف الآخر، كوكتيل؟

ـ جدتي. أبوها نرويجي وأمها هندية.

ـ يعني حضرتك نرويجي. هندي. مصري.

ـ وألماني. أمي حملت بي من رجل ألماني.

ـ يعني حضرتك أمم متحدة تسير على ساقين. (ثم إنني أرجأت الاستفسار عن " حملت بي من رجل ألمـاني " إلى حين.) لم يضحك لمزحتي كما توقعت، لكنه رد بجديـة شديدة بعد صمت:

ـ تأملي هذا وفكّري في العالم الذي نعيشه وكم هـو غريب، فجدي الكبير نهاب، جاء من النرويج للمشاركة فـي عملية نهب ثروات الهنود الحمـر وإبـادتهم فـي أمريكـا اللاتينية، وجدتي لم تكن إلا عبدة لديه و أنجبت أمي منه ولم يتزوجها أو يمنح اسمه لأبنائها جريا على العادة العنصـرية في ذلك الزمان الماضي، أما جدي المصري فقد جاء ليشارك

في الحرب الأهلية عندما بلغت عمليات النهـب والاقتسـام الاستعماري ذروتهـا بـين الـدول الأوروبيـة المختلفـة والمستوطنين الأمريكان الذين راحوا يقضمون قطعـة تلـو أخرى من أراضي الهنود الحمر الذين أبادوهم فـي أمريكـا الشمالية والوسطى، وها أنا الآن ـ وكما ترين ـ نتاج كـل هذا.

نظرت إليه متعجبة وممنونة نوعا لـدرس التـاريخ الذي تلقيته لتوي ... لم أعرف بماذا أجيب على ما قاله، فأنا في الحقيقة لا أعرف شيئًا عن وقائع التاريخ الـذي سـرده، وأعترف بأني لم أتعلم شيئًا في المدرسة ولا فـي الجامعـة يتعلق بتاريخ الهنود الحمر، وجلّ معلوماتي عن سكان أمريكا الأوائل مستقاة من أفلام الغرب الأمريكية المثيرة، وكل مـا تبقّى في مخيلتي من صور لهؤلاء الهنود، إنما هي لأنـاس ذوي بشرة نحاسية داكنة وشعور حريرية مسترسلة تغطيهـا تيجان من ريش ملون لطيور لا أعرف أنواعهـا، شـعرت بالحرج قليلاً، وبعجز مكثّف عن المشاركة بالحوار في أمور لا أعرف عنها إلا لماما، لكن فضولي لمعرفة المزيـد عـن حكاية جده المصري دفعني لسؤاله مرة أخرى:

- ولكن الغريب أن جدك المصري ذهب ليحـارب في المكسيك؟! ثم أردفت ضاحكة:

- مصر بعيدة جدا عن المكسيك، ولا أعرف أنـه كان بين الدولتين أي نوع من الصراع، مصر فـي أفريقيـا والمكسيك في أمريكا الوسطى وبينهما بلاد كثيـرة ومحـيط واسع و...

قاطعتني مضيفة مصر للطيران، إذ جاءت لتأخذ مـا تبقى من مائدتها الصغيرة غير العامرة، ولأعيـد الطاولـة/ الرف إلى مكانها الأول، مثبته إياها على ظهر مقعد الجالس أمامي، وبعد أن فعل رودلفو ذلك أيضا قال:

- جدي كان من جنوب مصر، واسمه أوثمانو وهو بيشوب. "أثمانو وهو بيشوب". كررت في سـري مـرة أو اثنتين وأنا أفكر لبرهة، وبعدها رحت أقاوم ضـحكة باتـت على وشك الخروج مني بينما أقول لنفسي: الأسقف عثمـان، هذا ما أسمعه لأول مرة في حياتي.

- تقصد الشيخ عثمان، في الإسلام لا يوجد بيشوب، أسقف يعني ولا توجد رتب دينية كما في الكنيسة المسيحية، هناك الشيخ فقط .. الشيخ عثمان.

وكدت أقول له أن الإسلام لا يعرف الكهنـوت وأن أي إنسان يستطيع أن يكون شيخًا لو قرأ القرآن الكريم وتفقه بالدين لكن رودلفو قاطعني وهو يردد:

ـ أوه ... شيخ ... شيخ.

قلت:

ـ شيخ ... شيخ. خ. Kh وشـددت علـى حـرف الخاء.

ـ شيخ. شيخ أوثمانو وهو جاء وقت الحرب ولكـن بقى في فيراكروز بعد أن عرف جدتي وهي كانـت جميلـة وأحبته جدا وأنا الآن أحاول العثور علـى عائلـة أوثمـانو وأعرفهم ... أليس جميلاً؟!

نظرت إليه متشككة قليلاً دون أن أرد على سـؤاله، فأنالا أعرف أهذا الذي قاله جميل أم غير جميل، فعشـرات الأسئة والأفكار انفجرت برأسي، فما يقوله هذا الجالس إلـى جواري يتجاوز المنطق ويحتاج إلى كم من الإجابات علـى أسئلة رأسي لمنطقته ومواصلة الكلام، تساءلت بداخلي:

هل هذه بداية فيلم أمريكي مثير؟ بدا لي الأخ رودلفو الجالس إلى جواري غريب الأطوار قليلاً خصوصا وأننـي

لاحظت أنه يضع بأصابعه الثلاثة خواتم من الفضة، واحـد منها على هيئة خفاش عيناه من الزمرد الحقيقي.

قلت بعد تفكير:

ـ وكيف ستعثر عليهم ... هل معك ما يدل عليهم؟ هل تعرف كم عدد سكان مصر الآن؟ إنهم أكثر من سـبعين مليون نسمة، وفي الحقيقة فإن الرقم الصحيح ربمـا يكـون أكثر من هذا بكثير، لأن الناس لا تثق في الحكومـة أبـدا، وتخشى أية عملية للتعداد السكاني تقوم بها الدولة، والفقـراء يظنون أن الحكومة تعدهم لأنها ناوية لهم على الشر، أو لأنها تحسدهم على ما أعطاهم ا من عيال على أفضـل تقـدير، لذلك فهم يمدونها بأرقام خاطئة ومضللة وغير دقيقة، ومعنى ذلك يا رودلفو أنك تنوي البحث عن إبرة في كومـة رمـل؛ يعني مستحيل أن تجد عائلة عثمان جدك دون أن يكون لديك مستندات أو وثائق أو أي دليل يقودك إلى هذه العائلة.

ـ نعم. نعم. عندي أشياء.

قال وهو يهب واقفًا مما لفت نظر الطفل الجالس إلى جوار أمه على الكراسي الموازية لمقاعدنا في الجانب الآخر الذي يفصله عنا ممر الطائرة، ويبدو أنه ظـن أن رودلفـو

سيشرع في تقديم استعراض بهلـواني سـريع، لأنـه راح يضحك ويصيح بكلمات غير مفهومة وهو يشير إلى رودلفو بإصبعه، بينما كان الأخير يفتح باب رفّ الطائرة ويأتي من حقيبته الموضوعة بداخله، بمظروف ضخم، فتحه عندما جاء ليجلس إلى جواري مرة أخرى وقال:

ـ هذه هي أوراق جد أمي. كانت أكثـر مـن هـذا بكثير، لكن أمي التي احتفظت بها كواحدة من تذكارات جدتها قالت لي أن أمها أحرقت العديد من هذه الأوراق في مناسبات مختلفة، فكلما كان يلم بها مرض، أو تحدث لهم أحداث غير سارة، كانت تحرق بعضا منها ضمن ما تقوم به من طقوس هندية قديمة لاعتقادها بأنها أوراق سحرية، لكن عندما ماتت جدة أمي، ظلت هذه الأوراق بمنزلهـا بفيراكـروز، وقـد احتفظت أمي بعد ذلك بهذه الأوراق التي أخذتها مـن أمهـا حتى بعد أن انتقلت للعيش مع أبي الألماني الأسباني، لأن أم أبي أسبانية الأصل، ثم انتقلت هذه الأوراق مع أمـي إلـى نيومكسيكو حيث ولدت وعشت معظم سنوات عمري الأولى، أظن أنها مكتوبة بلغة مصـرية عربيـة أو فارسـية ... لا أعرف ... ثم ابتسم وأردف:

ـ أو أنها أوراق سحرية، كما كانـت تظـن جـدة أمي... من يدري ربما كانت كذلك!

لم أرد، وبدأت أفتح المظروف الذي ناولني إيـاه ... كانت هناك رزمة من الأوراق الصفراء، وضعت بين دفتـي جلدتين بشريط من المخمل الأحمر، وعندما بـدأت أتلمـس الصفحات المدونة بقلم كوبي أزرق، والتي تلاعبت بملامـح حروفها السنون الطويلة، فبهتتها وأوهنتها، خيل لي أن هناك رائحة غريبة تفوح منها ... رائحة تخالطت فيهـا روائـح البحار، بملح دموع قديمة سقطت عليها هنا وهناك، وأوراق عشب غابات بعيدة جعلتني أسرح بفكري بعيدا، مفكرة: ماذا يا ترى سيكون وراء هذه الأوراق ... هل يمكن أن يكـون فيها ما يقود رودلفو إلى حقيقـة وأصـل جـده المصـري المزعوم؟، لا أعرف، ثم إنني أفقت من استغراقي في التفكير على صوت مضيفة الطائرة وهي تطلب من الركـاب ربـط الأحزمة وإعادة وضع المقاعد في وضعها الأصلي استعدادا للهبوط في مطار القاهرة.

هبطت الطائرة في مطار القاهرة، فغادرتها وأنا أودع رودلفو وأتمنى له إقامة طيبة، والتوفيق في العثور على مـا

تبقى من عائلة جده المصرية، وقبل أن أتركه زودته ببعض النصائح المتعلقة بالتعامل مع سائقي التاكسي، وكذلك بأفضل المطاعم التي يمكن أن يأكل بها أكـلات مصـرية تقليديـة (اكتشفت فيما بعد أنه يحمل معه كتابا مليئًا بكل التفاصـيل عن المطاعم ومحلات الشراء التي لا أعرفها أنـا وكـذلك أسعار السلع التقليدية).

ثم إني أعطيته عنواني ورقم تليفوني للاتصال بي إذا ما احتاج إلى شيء ما، وذلك من باب الذوق والكياسة، وكنت بالطبع أنطلق من قاعدة مصرية قديمة ترى أن كل غريـب قادم إلى البلد إنما هو غلبان مسكين، وحالة تراجيدية تستحق الاهتمام والرعاية والعطف، قلت له مازحة:

ـ عموما، أنت مصري، تصرف وكأنك في بلدك.

واقترحت عليه الاتصال بهيئة الاستعلامات في وسط البلد وبينت له مكانها، قائلة له أنه ربما يجد فيها من يساعده على الوصول إلى عائلة جده المصرية، وبصـراحة كنـت خلال ذلك أتشكك في جدية رودلفو حقًا فيم يتعلق بالوصـول إلى جده وإلا لماذا انتظر كل هذه السنوات الطويلة حتى فكر في البحث عن أصوله المصرية، ولا أدري لماذا تذكرت وأنا

أفكر بذلك في حكاية سيدة مصرية قريبة لنهـال صـديقتي، التقيت بها في إحدى المرات ببيت نهال، كان أبوها مصـريا وأمها صربية، وقالت لي أن هناك مجموعـة مـن الغجـر اليوغسلاف يطالبون بالحصول على الجنسية المصرية، وقد ذهبوا إلى السفارة المصرية ببلغراد وقدموا طلبا بذلك، ولكن طلبهم قوبل بالرفض ... هل يمكن أن يكون رودلفو راغبـا في الحصول على الجنسية المصرية أيضا من خلال ادعـاء أصله المصري أيضا؟ ربما.

ركبت تاكسيا ودخلت قاهرتي المجنونة التي افترسها الزحام والضجيج والتراب والإهمال والقبح المعماري والفساد والفوضى، ناهيك عن تفاصيل الحياة اليومية الغبية المعقـدة الملتهمة للعمر والوقت والجهد والأعصاب، كانت في حوالي الواحدة صباحا ترقد هادئة مستكينة كطفل مشاغب شقي هده التعب بعد لعب كثير فنام، ورغم كل معاناتي منها مثل أيـة مواطنة أو مواطن ولد وعاش فيها وكابد متناقضات حياتهـا اليومية، إلا أنني شعرت وبمجـرد أن خرجـت مـن بـاب المطار، وكأن روحي الضائعة قد ردت إلي مرة أخرى، وأن تنفسي بات طبيعيا، وبكل ذلك الشمول النفسي من السـكنية

والاطمئنان، فأي إدمان أدمنه لسـحرها الغـامض وأمانهـا المستقر وحياتها الصاخبة الوادعة في آن معا، وكـل تلـك العذوبة الفائضة في ناسها، رغم الفقر وقسوة الحياة والأيـام التي تكر ولا تجود بما هو أفضل أبدا.

على مدى ما يقارب الأسبوع بعد ذلـك، كنـت قـد نسيت رودلفو وأوراقه وحكاياته عن المكسيك وجدوده وثورة الهنود، وانشغلت بتفاهات عمتي اليومية ودوامـات القضـايا والمحاكم ومشاكل حقوق الإنسان التي تبدو لي دوما وكأنهـا بلا أول ولا آخر، وتدور في حلقات مفرغة، كانت عمتي لا تكف عن الثرثرة كلما التقيت بها في البيت وتصر على ملء فراغات تظنها موجودة في حياتي، وخرق الاتفاقات المعقودة بيننا، فقد أعلنت وبعد مرور يوم واحد فقط مـن وصـولي للبيت عن عرض مفاجأة متصورة أنه يتوجـب علـي إثـر سماعه الشهيق انبهارا، والسجود الفوري تحت قدميها امتنانًا! ثلاثة عرسان دفعة واحدة، لابد أن أختـار واحـدا مـنهم، وبسرعة ... الأول ابن لسيدة التقت بها وتعرفت عليها فـي محل الكوافير أثناء تغيير لون شعرها من الأحمر النحاسـي إلى الأصفر الكهرماني، والثاني قريب لنا، سمعت عنه مرارا

ولم أره مرة واحدة طيلة حياتي، لأنه هاجر إلى أستراليا منذ سنوات طويلة، لكنه عاد مصرا على الـزواج مـن واحـدة مصرية " تكون من ثوبه ويعرف أصلها وفصلها "، كما قالت وعلقت أنا: يا سلام!!. والثالث وكيل نيابة أخ لجارة لنا فـي العمارة " ويبقى زيتكم في دقيقكم وكله شغل نيابة ومحاكم".

إجابتي الثلاثية كانت قاطعة: لا. لا. لا. وبطلي يـا عمتي الكلام الفارغ ولو سمعت حكايات من هذا النـوع يـا عمتي مرة ثانية وا   العظيم أسيب لك البيت وأمشي.

في نهاية الأسبوع، وبعد يوم شاق من العمل والجري في المحاكم، عدت إلى البيت، كنت مرهقة جدا بسبب الحـر ورطوبة الجو الفظيعة، وفي حالة مـن الغـيظ الشـديد لأن ماسورة الصرف الرئيسة في ميدان العباسية انفجرت فجـأة وأغرقت الشوارع مما أدى إلـى تعطـل حركـة المـرور وانحباسي داخل الأتوبيس في شارع رمسيس ما يزيد علـى الساعة إلا ربع شرعت في خلع ملابسي تأهبا لدخول الحمام وعمل دش بارد، حتى أسترخي قليلاً وأتناول الغـداء مـع عمتي، وبينما كنت أشرع بفك أزرار بلوزتي الكتان البيضاء التي أحالها غبار يوم عمل واحد في المدينـة إلـى اللـون

الرمادي، رن جرس التليفون مرارا، فزعقت عمتـي بينمـا كانت تحمل بيديها طبقي كشك صعيدي بالتقلية وتسير مـن المطبخ باتجاه غرفة الطعام.

ـ اَ ردي من عندك يا خالدة، ارفعـي السـماعة جوه. يعني التليفون نازل رن وأنت ولا كأنك هنا!؟

ـ طيب. طيب، زعقت لها بدوري من داخل الحمام وتوجهت إلى غرفتي لأرد بينما يجيئني الصوت:

ـ هل يمكن أن أكلم مس خالدة؟

ـ رودلفو ... أنا خالدة.

عرفت صوته للوهلة الأولى، بنبراته الخشنة القصيرة والسريعة.

ـ أوه ... كيف حالك، هل كل شيء جيد معك؟

ـ نعم. نعم ... كل شيء تمام.

صمت قليلاً بعد أن قلت، وقال:

ـ سأسافر اليوم بعد منتصف الليل، هـل يمكـن أن أراك قبل سفري في المساء لبعض الوقت.

ـ اليوم؟!

تساءلت وأنا أكاد أن أنفجر من الغيظ، فأنا قد وصلت البيت لتوي لألوذ به من العمل منذ الصباح في هذه المدينـة المجنونة والمتعبة إلى درجة لا يمكن تصورها وأتوق لأكـل لقمة وشرب كوب من الشاي واقتناص ساعة قيلولة، ثم هـل يظن هذا الخواجة أنني واحدة صـايعة، بـدون شـغلة ولا مشغلة، أجلس إلى جانب التليفون انتظارا لمكالمته؟ لماذا لـم يكلمني بالأمس مثلاً لأرتب وقتي خصوصا وأن الساعة قـد تجاوزت الرابعة بعد الظهر، ترددت قلـيلاً، فأنـا أريـد أن أرفض بأسلوب مهذب وأنهي المكالمة بسـرعة ... بقيـت صامتة قليلاً لا أقول شيئًا، فقال واستشرت نبـرات حـرج وخجل بصوته:

ـ أنا آسف، كان يجب أن أحادثك قبل ذلـك بوقـت مناسب، لكني لا أعرف كيف يمر الوقت بسرعة هكذا فـي القاهرة، ولم يكن من المناسب أن أكلمك بعد الساعة العاشرة مساء عند عودتي إلى الفندق، لكن أرجوك سيكون جميلاً أن تأتي، لن آخذ من وقتك الكثير.

كان ثمة فضول يعتريني يتعلق بهذه المقابلة، ورغبة خفية لمعرفة هذا الرجل، ربما كانـت دوافعـي إلـى ذلـك

شخصية (قد أعثر فيه على ما لا أجده عند غيره. أبي وقـد تجسد)، وربما كان خيالي الجانح هو الدافع لذاك الفضـول وتلك الرغبة، وربما الحس البوليسي المكتسب مـن طبيعـة عملي كمحامية، فربما أتوصل إلى قضية غير عادية تكـون قصة رودلفو خيوطها الأولى. المشكلة ليست في لقائه، ولكن الصعوبة تكمن في توقيت لقائه، لو كان قد تلفن لي بالأمس، لكنت تهيأت بما يكفي ورتبت أموري وبقيت بوسط البلد بدلاً من الرجوع إلى البيت والعودة إلى وسط البلد مـرة أخـرى والمرمطة في المواصلات، زفرت رغمـا عنـي وحسـبت الوقت، ساعة غداء، وساعة نوم، قلت:

ـ طيب ... أين ألتقي بك؟

ـ أنا في فندق فلامنكو بالزمالك، ما رأيك أن تـأتي إليه ونقرر بعد ذلك إلى أين نذهب.

فكرت قليلاً: الذهاب إلـى الفنـدق فكـرة سـخيفة، وللحظات اختفت من أرشيفي أسماء كل الأماكن العامة التي يمكن أن ألتقي به فيها، وكنت أفكر خلال ذلك فـي التقائـه بوسط البلد، وكان هذا معناه أن ألخص وسـط البلـد فـي " جروبي " ... قلت:

ـ لا. نلتقي في وسط البلد أفضل، هناك مقهى اسمه " جروبي " معروف جدا، هو في ميدان طلعت حرب، كـل سائقي التاكسي يعرفونه، ما رأيك أن تكون هناك في الخامسة والنصف.

ـ ممتاز. طالا هرب.

ـ طلعت حرب. ميدان طلعت حرب.

أكدت له مرة أخرى وأنهيت المكالمـة بعـد ذلـك استجابة لضغوط عمتي " بقى لي ربع ساعة محضرة السفرة وقاعدة متصبرة وأنت نازلة دش فـي التليفـون، خلّصـي وتعالي، و إلا نفسي تنسد من الزهق ".

مكانان لهما ذكريات خاصة بداخلي جروبي وميدان طلعت حرب، أو سليمان باشا كما كان يسميه أبي، ومعظـم الناس حتى الآن، ومحل الشاي الهندي، وهو ما اختفى مـن خارطة المدينة، مثل عشرات الأماكن والأبنية والمحـلات، التي ذهبت دون عودة مع الريح، ريح المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية العاصفة المجتاحة للبلد منذ عدة عقـود وقلبتـه رأسا على عقب.

جروبي سليمان صمد وظل في مكانـه، وإن طالـه بعض من القبح وكثير من أمراض الشيخوخة المهيمنة علـى ملامح ومعالم المدينة، ولكن ذلك لم يحـل دون أن أتـذكره دوما بالخير، ففيه طالما جلست مع أبـي منـذ أن وعيـت بطفولتي الأولى، كان فخما، وأنيقًا جدا مثلما كان زبائنه فـي الماضي، أتذكر جرسوناته بتهذيبهم وملابسهم بالغة الأناقـة والنظافة، والكاستا اللذيذة وأنا أصر على طلبها كـل مـرة أذهب فيها إليه، وأبي يحاول إقناعي بتغييرها " طيب اطلبي حاجة تانية، جربي الترايفل أو سـلطة الفواكـة أو الكـريم كراميل "، لكن كانت محاولاته تذهب سدى، فكنت مخلصـة دوما للكاستا بالمارون جلاسيه، أما الشاي الهندي فهو مرتبط عندي بذكرى لا أنساها حيث شعرت لأول مرة في حيـاتي بأنني أغار من امرأة أخرى. كنت في حـوالي التاسـعة أو العاشرة وذهبت إلى ذلك المحل مع أبي، وبصـحبته سـيدة كانت جميلة وأنيقة جدا على ما أذكر، كانت ترتدي فسـتانًا أسود من الحرير يكشف عن ذراعيها وجيدها وتضـع فـي شعرها المعقوص أمشاطًا عاجية مطعمة بفصـوص براقـة. بدت لي فاتنة جدا برقبتها الطويلة المحاطة بعقد دورين مـن

اللؤلؤ ـ هكذا أتذكر ـ وتطلي شفتيها بأحمر شفاه فاقع اللون، فجأة انتبهت بينما كنت أمازح قطة جاءت تحت مقعدي للتسول طعاما وحنانًا، فوجدت أبي يتمعن بوجهها طويلاً ثم ينحني ليلثم يدها بشفتيه، عندئذ قمت من مطرحي ورحت أطوق عنقه بيدي وأقبله على نحو مبالغ فيه جعله يضحك، لكني كنت غاضبة وحانقة عليه، وعلى تلك المرأة التي لم أنسها أبدا، وقد داخلني شعور عاصف بأنه خدعني، فأنا لست محبوبته الوحيدة الأثيرة التي يغمض عينيه كل مساء على صورتها وينام، كما كان يقول لي دوما.

رحت أتذكر وأفكر بينما كنت جالسة أراقب عشاق اليوم من الشباب، شبان بعضهم بذقون واضحة مغطاة بالشعر وشابات محجبات على الأغلب ... تساءلت: ترى ماذا كان أبي سيقول عن رودلفو لو ظل عائشًا حتى الآن ولم يمت؟، وكيف سيكون رأيه في قصته الغريبة التي لا أعرف هل أصدقها أم أكذبها؟. ابتسمت وأنا أتخيل تارة أنه سيتهكم ويضحك وهو يقول: ولماذا لا تعرفيه على المخرج السينمائي حسن الإمام؟. إن قصته ملائمة جدا لنوع الأفلام التي يخرجها عادة، وربما لو رآه شخصيا، لفكر في إسناد البطولة

المطلقة له، كان أبي سيسخر من حكاية رودلفو وسـيجعلها موضوعا للتندر بينه وبين عمتي بلا شك، مما يدفعني للغيظ والغضب خصوصا إذا ما انتهزت عمتي الفرصة وراحـت تناقش موضوع ضرورة زواجي بأسرع ما يكـون. كـدت أغتاظ وأنا جالسة فعلاً، وكنت خائفة وحائرة، فأنا لا أعرف على وجه التحديد، هل أصدق قصة رودلفو هذه أم أكـذبها؟، فالقصة بدت لي ذات بعد أسطوري لا يصدق، شاب مكسيكي يعيش في ألمانيا جاء إلى مصر بحثًا عن أصول جده المفقودة منذ عشرات السنين، وكل ما لديه مـن الأوراق الصـفراء القديمة، لا ... يجب أن أتحفظ عند اتخاذ أي قرار مـع الأخ رودلفو يتعلق بهذه القصة، قلت لنفسي وأردفت - كما يجب أن أتوقف وأفهم منه بعض تفاصيلها مثلما أفعل عادة عنـدما أفحص ماأشتغل عليه من قضـايا. بـدأت أشـحذ أسـلحتي الدفاعية وأنا أفكر، لكن رودلفو قطـع تسـاؤلاتي الحـائرة وأوقف توجساتي المتنامية لما رأيته يتقدم من باب المحل إلى الداخل بخطوات متلكئة وهو يدور بنظراته في المحل باحثًـا عن مكاني، بدا وجهه لي خلال ذلك وكأنه من الوجوه التـي يصعب تصنيفها جغرافيا، فالقارات الأرضية الست تشاركت

جميعها في رسم خريطة ملامحـه، شـعر هنـدي متـدفق النعومة، وعينان يمكن أن تطلا عليك من أية مدينة رابضـة عند مياه المتوسط، ثم تلك الوجنة المنبسطة العريضة لسكان أستراليا الأصليين، وفوق ذلك كله، فالأخ رودلفو من الممكن أن يكون " شلبي " بواب عمارتنا القادم من صـعيد مصـر الجواني أو أي شاب شبرجي يمكن مصادفته في واحدة مـن محطات مترو الأنفاق من أول المرج وحتى حلوان، فـالأداء العام لملامحه وحركاته التلقائيـة تمنحـه حـق المواطنـة المصرية بامتياز، عموما، أشرت له من مكاني فجأة وجلـس بعد أن حياني ودعوته إلى شرب ليمون مثلج كالذي أشـربه وكنت قد طلبته بمجرد وصولي، ورحت أشرح له بطريقـة دعائية سياحية مزايا الليمون البنزهير المصـري الممتـاز، والمتميز بصغر حجمه وكثرة عصيره ولذة طعمه خصوصا لو أضفت إليه في الخلاط ملعقة لبن وقلـيلاً مـن الفانيليـا والنعناع الناشف المطحون، " وأحلى ليمونادة تشـربها فـي الدنيا من الليمون البنزهير وأرق كولونيا في العالم تصنع من زهوره، وتقدر تشتري وأنت مسافر بخمسة جنيهات ليمونًـا تحطه على الشوربة.

راح رودلفو يمتص مصات متتابعة طويلة من كأسه التي أتى بها النادل وقد تندى سطحها الخارجي بضباب ثلجي خفيف، وذلك بالمصاصة البلاستيكية ذات الطرف المعقوف، ثم قال - وربما كنتيجة للدعاية الهائلة التي قمت بها لليمون البنزهير:

- لذيذ فعلاً ... ممكن آخذ واحدة ثانية؟

ناديت على الجرسون، وطلبت له كأسا ثانيـة، كمـا طلبت منه أن يأتي بليمونة ليراها رودلفو، فلما عـاد بهـا، تشممها رودلفو ودعكها بيده ثم قال:

- آه. أظن أن عندنا مثله.

- فعلاً؟! تساءلت بدهشة وأضفت:

- ربما كان هندي الأصل.

ابتسم وأضاف:

- آه. ربما أحضرها جدي من مصر إلى فيراكروز ذات يوم!

ابتسمت بدوري، وإن كانت قد تأكدت لدي درجة من الهوس في كلامه عن جده وأصله المصـري، وهـو ممـا

استشعرته خلال لقائي به في الطائرة، لكنه لم يتركني طويلاً لانطباعاتي الداخلية، إذ واصل كلامه:

ـ ذهبت إلى الهرم بالأمس وهو خطير جدا، وكذلك رحت الاستعلامات وقابلت بعض الناس فيها وقالوا لي أنه من الصعب جدا أن أجد عائلة جدي، لأنه لا توجد معي مستندات واضحة ومفيدة تدل على اسمه الكامل أو اسم عائلته، وواحد منهم قال لي أن المسألة تحتاج إلى أن أظل في مصر عدة شهور وربما أكثر إذا كنت أريد الخروج بنتيجة فعلاً، وأنا قلت لهم أن هذا مستحيل لأن لدي عملاً في ألمانيا وفي النهاية اقترحوا أن أترك الأوراق التي معي كلها ليفحصوها ويدروسها، ثم يأتيني الرد منهم بالبريد بعد أن أسافر، والحقيقة أنني رفضت وقلت إن هذا مستحيل، فأنا أخشى على هذه الأوراق جدا، وقد سألوني أسئلة كثيرة عن سبب زيارتي لمصر، وهل أنوي الإقامة فيها طويلاً، وكذلك سألوني عن عملي في ألمانيا ولماذا أعيش فيها؟ وأنا تعجبت لكل هذه الأسئلة، وقلت لهم أنني مهندس، وتعجبت كذلك لأنهم سألوني عن الناس الذين أعرفهم في مصر، فضحكت وقلت لهم أنتم وحسين بارمان الفندق لأنه شخص لطيف جدا

وأتداول معه الكلام كلما رحت لأشرب البيرة في البار وهـو نصحني نصائح مفيدة ودلني على محل أشتري منه ملابـس من القطن المصري وكان ممتازا جدا ثم قلت لهم عنك أيضا، وأخبرتهم أنني جئت للسياحة وللبحث عن عائلة جدي.

سألته: ـ لكنك لا تعرف شيئًا عني، ماذا قلت لهم؟!

سكت قليلاً وهو ينظر إلي طويلاً، ثم أبدى إعجابـه بعقد الكهرمان في رقبتي قبل أن يضيف:

ـ بصراحة، كدت أن أعطيهم المظـروف، لكنـي فجأة، خفت على ما بداخله من أوراق، لا أعرف في الحقيقة لماذا آثرت ألا أعطيهم الأوراق في النهاية، وبعد أن خرجت من الاستعلامات خطر ببالي أن أترك الأوراق معك لتقرئيها، فربما تجدين فيها شيئًا يدلني على عائلة جدي، وفي جميـع الأحوال، أستطيع أن أسترجعها منك فيما بعد، فأنا أشعر أنك إنسانة جيدة وصادقة يمكن أن تكوني صديقة لي.

دهشت وشعرت وكأنني عسكري مرور في ميـدان قاهري ساعة ذروة الظهيرة، مسحت جبيني بيـدي، وكـأن حبيبات عرق تجمعت عليه، ففكرة إعطائي الأوراق أربكتني ناهيك عن " ويمكن أن تكوني صديقة لي "، وسـرعان مـا

تدفقت في رأسي عشرات الأسئلة مـن سـرداب المخـاوف المعتم بداخلي، أسئلة روايات بوليسية قديمة وقد تداخلت مع مشاهد أفلام مصرية أبيض وأسود، ثم هناك أسئلة النصـب والاحتيال وصفحات الحوادث بالصـحف القوميـة وغيـر القومية.

هممت أن أنطق رافضة هذا الشرف، وتلـك الثقـة اللذين لم أتوقعهما وأنا أتذكر بعضا من تراثنا " ابعـد عـن الشر وغن له"، لكن الحقيقة أن فضولاً عارما ومثيرا، وأمرا غامضا، كانا يعتملان بداخلي، ويدفعاني لاستشعار أنفاسـي بينما أقول:

- طيب. لماذا لا تصورها فوتوكوبي وتترك معـي صورة منها.

- لا. حاولت تصويرها، لكن التصوير فشل، قـالوا أنها قديمة جدا لا تصلح للتصوير.

ثم ابتسم وأضاف:

- يبدو أنها ستظل أصلاً دائما، أصلاً حقيقيا لا يمكن أن يكون له صورة.

اقترحت عليه أن أصحبه في جولة سـريعة لـبعض الأماكن التي أعرفها بالقاهرة إذ كانت أمامه عدة ساعات قبل أن يذهب إلى المطار لتعود الطائرة به إلى ألمانيـا، وأثنـاء خروجنا إلى الشارع بدا لي لطيفًا وأحسست أن ثمة شـعورا إنسانيا غامضا يقربني منه، ذهبنا إلى جامع أحمد بن طولون ودلفنا معا إلى صحنه العتيق وحكيت له أنه من أقدم جوامـع مصر وأن الصلاة لم تقم فيه منذ قرون طويلة ويقـال أن ا انتقم من ابن طولون بذلك، لأنه عاقب المهندس القبطي الذي بناه فسجنه، فلعنه الأخيـر ودعـا عليـه ـ هكـذا تقـول الأسطورة.

قال رودلفو أنه خلال الأيام القليلـة التـي أمضـاها بمصر، شعر وكأنه ولد هنا وعاش عمـره كلـه فـي هـذا المكان، وحكى لي أيضا أنه حلم منذ يومين وهو في فندقـه بالزمالك بأنه قابل جده عثمان، وأن الأخير ظـل يحتضـنه ويقول له: ها أنت عدت أخيرا ثم إنه رأى أبو الهول يفـتح فمه ويصلي بصوت عال جميل تلك الصلاة التي سمعها قرب الفجر وهو غافٍ في فندقه بالزمالك.

حاولت أن أوضح وأقول له، أن الأذان غير الصلاة، لكن إنجليزيتي لم تسعفني بكلمة واحدة تفيد المعنى، غير أني شرحت له أن الأذان دعوة للصلاة وليست الصلاة ذاتها، لأن في الزمن القديم، لم تكن هناك كهرباء ولا ميكروفونات ولا ساعات يد أو حائط، فابتـدعت المـآذن واختيـرت أجمـل الأصوات وأرقها لدعوة الناس للصلاة، وتمنيت بداخلي بينما كنت أقول ذلك ألا يكون المؤذن الذي سمعه رودلفو واحـدا من بوابي العمارات ذوي الأصوات البشعة التي تقتحم الآذان طوال الوقت، بعد أن احترفوا الأذان في جوامـع صـغيرة ضيقة، أسفل البنايات والعمارات.

يبدو أن رودلفو أعجبته هـذه الأفكـار التاريخيـة الخاصة بالأذان إذ قال فجأة:

ـ أبو الهول كان جميلاً جدا وهو يقول ا أكبر. ا أكبر.

ـ وأشهد أن لا إله إلا ا . قل يا رودلفو

ـ ماذا؟

ـ أشهد أن، لا، إله، إلا، ا .

رددت الكلمات ببطء فكررها قلت بحروف عربية ركيكة مما دفعني للابتسام وأنا أقول له:

- إذن ... أنت مسلم الآن ... مسلم كجدك الشيخ عثمانو فالشهادة هي أولى خطوات الإيمان.

رد بحماس:

- أنا مسلم طبعا. أقصد أنا لست ضد الإسلام ولست ضد أي دين، وفي بيتنا أمي كانت مسيحية كاثوليكية، لكن كانت لديها معتقدات هندية أيضا وربما معتقدات إسلامية أيضا - ودون أن تدري - أَولَم يعش المسلمون في الأندلس قرونًا طويلة؟، أولم يستعمرنا الأسبان المتأثرون بالعرب بعد ذلك؟. الحروب بشعة وأبشعها حروب الاستعمار، لكن يبدو أن الفائدة الوحيدة للاستعمار هذا هو أنه ودون أن يقصد نَقَل ثقافاتٍ وساعد على امتزاج أجناس مختلفة، وأنا شخصيا أكبر دليل على هذا.

أخذت أفكر في كل ما قاله، وأذان أبو الهول كما سماه، لكني سرعان ما عدت من أفكاري على رنين التليفون المحمول، فمددت يدي إلى حقيبتي المعلقة على كتفي لأخرجه وكانت عمتي:

- اسمعي يا خالدة أنا عند طنط سـميحة فـوزي جارتنا في الدور الخامس، أصل أختها عندها مشكلة وقاصدة أنك تحليها لها، لأن عندها سواق سوداني عنده مشكلة وربنا يقدرك وتخلصيه منها، أنت راجعة البيت بسـرعة، اطلعـي اشربي قهوة عن طنط سميحة، أنا فوق.

كنت أشد شعري من الغيظ فعلاً، فعمتي لا تكف عن اقتحامي عبر المحمول في أي وقت تشاء، وهـي تواصـل إفساد لحظاتي وتدخّلها في شئوني من خلاله، وقصة السواق السوداني ربما تكون واحدة من قصصها المؤلفة المختلفة، أو ربما كانت واحدا من كمائنها المعهودة لتقديم عـريس مـن العرسان المختبئين في جرابها دوما لي ... قلت بنبرات تكاد تنفجر على شفتي:

- عمتي، أنا في الشارع مع ناس ولما أرجع نـتكلم في الموضوع ... سلام.

اشترى رودلفو بعض الهدايا مـن محـل عاجيـات مصرية، تملكه سيدة فرنسية ويقع أمام جامع طولـون، ثـم توجهنا بعد ذلك إلى جامع السلطان حسن والرفـاعي وبـدا مبهورا بعمارة الجامعين وضخامة بنائهما، وعندما خرجنـا

طلب رودلفو من بعض المارة التقاط صورة مشتركة له ولي أمام باب الجامع الضخم، وبينما كنا نسير بعد ذلك، علّق بإعجاب على الطلاب الذين كانوا يجلسون بصحن الجامع لاستذكار دروسهم، ثم إننا جلسنا بعد ذلك بواحد من المقاهي الشعبية المنتشرة بالمنطقة لنشرب الشاي، وطلب هو نرجيلة أيضا وبينما رحنا نحتسي الشاي ونتابع بأعيننا تدفق الرائحين والغادين في الطريق دونما انقطاع قال:

ـ لم أكن أتخيل أبدا، أنني سأجلس ذات مرة لأحتسي الشاي في المكان الذي عاش فيه جدي يوما، لو عشت يوما من ذات الأيام في مصر، سوف آتي لأسكن هذا المكان الفريد الخاص.

صمت، ثم أضاف بصوت استشعرت منه وكأن عصافير كثيرة حطت مرة واحدة على حباله الصوتية.

ـ أظن أنني لابد وأن أعود مرة أخرى إلى هذا المكان، فثمة شيء غامض يشدني إليه، شيء يجعلني أشعر وكأنني عشت هنا ذات مرة من قبل.

ثم:

ـ هل ستقرئين هذه الأوراق من أجلي؟

أومأت برأسي وأنا أتطلع ببصري إلى البعيد، مفكرة فيما قاله للتو وكانت القلعة أمامنا، شاهقة شامخة تطل علينـا من عليائها في صمت وبدت لي وكـأني أراهـا لأول مـرة الآن...

ما إن دخلت من باب البيت حتـى وجـدت عمتـي جالسة في الأنتريه وأمامها طبق ترمس والراديو على آخره يصدح بصوت شادية " آه يا لموني يا لموني " هتفت بغيظ:

ـ عاملة فرح يا عمتي؟ صوت الراديو عال جـدا، الساعة دخلت على العاشرة والربع.

كنت أعرف أن سمعها ضعيف في الفتـرة الأخيـرة وهي تظن أن صوت الراديو أو التليفزيون خفيض، سارعت بخفض صوت الراديو القـديم الموضـوع علـى المنضـدة الأسيوطية في الركن بينما قالت هي:

ـ شادية، كان صوتها كأنه ندى، كلّه طيبـة وحـب وحنان.. ا   يمسيها بالخير.

ـ طيب يا عمتي، لكن أنا طلبت منك ألف مـرة أن تبطّلي تطلبيني على المحمول إلا لو كان فيه موضوع مهـم

وعاجل، يعني موضوع سميحة فوزي كان لازم الكلام فيه على وجه السرعة ... خلاص يعني؟!

ردت بجد:

- وا العظيم الولية في غاية النكد، لأن السواق السوداني الشغال مع أختها هويدا من ساعة ما مات رجلها، وهي مشكلة فعلاً وأنا كلمتك من عندها لأنها قالت لي عليه وأنا نسيت أقول لك وهي ظانه أنني أهملته.

- طيب. قولي لي الموضوع.

- والنبي أنا ما فاهمة، أصل السواق سوداني والحكومة عاوزة تطرده من مصر ويروح أمريكا.

- يا سلام؟! قلت.

- آه ... وهو مسكين ومتحير وعاوز يفضل في مصر.

- طيب والحكومة تطرده بدون سبب، كل السودانيين في مصر من زمان وعددهم كبير ومشاكلهم في مصر مختلفة لأن معاملتهم في الإقامة كمعاملة المصريين و...

قاطعتني بضيق:

- طيب، كلّمي سميحة فوزي وافهمي منها الموضوع.

مر أسبوع دون أن أتمكن من الاطلاع على أوراق رودلفو، وقد ظلت داخل مظروفها لم تنفض عنها غموضها وإثارتها بعد، كنت أجري طيلة الوقت هنا وهناك بين أروقة المحاكم المزعجة، وأقسام البوليس القذرة، بحثًا عن حقوق مهضومة للبعض أو فضا لمنازعات ما كان يجب أن تحدث بالأصل لفرط سخافتها، لأعود في آخر اليوم منهكة، أتمدد دون راحة داخل عالم عمتي المنسوج من تفاصيل الملل والضياع واللاجدوى، ومسلسلات التليفزيون البلهاء، وأدوات التجميل، والنميمة، والسعي وراء الحظ بفتح أوراق الكوتشينة من حين لآخر، لكن على رغم كل ذلك، وعلى رغم أنها تراني معقدة وفاقدة للأنوثة مع سبق الإصرار والترصد، وأنني لا أقدر ما حباني ا به من مواهب جسدية وخلقية حق تقديره، ورغم خناقاتنا المزمنة، إلا أنني كنت أوقن أنها الكائن الوحيد الحميم والقريب مني في هذا العالم، فهي أثمن ما في التركة البائسة التي تركها أبي لي، وفي الحقيقة كنت

لا أطيق ابتعادها عن البيت أو مبيتها خارجه عندما كانت تفعل ذلك أحيانًا فتذهب مع بعض صديقاتها إلى الإسكندرية أو مكان آخر.

والحقيقة أن الجانب الانتفاعي لم يكن غائبا عن علاقتي بها، فمنذ أن جاءت لتقيم معي وهي تتكلف بكل تفاصيل حياتي اليومية التي كان أبي في السابق يقوم بها، فلقد باتت المسئولة عن الطبخ وعن إعداد الطعام وعن كل شئون البيت التي أكرهها كراهية التحريم، ورغم أنها كانت تستغل نقطة ضعفي هذه وتستخدمها ورقة ضاغطة بين الحين والحين عندما تعلن:

" لولا أنك صعبانة علي، كنت زماني في حضن رجل بالحلال وعلى سنة ا ورسوله. اللواء سعيد متولي مستعد يحارب عياله بعد موت أمهم ويبوس التراب اللي تحت رجلي. لو شاروت له وقلت آه. صحيح أنه على المعاش، ولكنه محترم وطلعته ترد الروح وتصبي العجوز لكن أنت كأنك معمول لك عمل، أو مسحور لك سحر، لا عاوزة ترتبطي بواحد وتحلي عني، ولا أنا قادرة أن أتركك لوحدك. يعني لا أنت راحمة ولا تاركة رحمة ربنا تنزل ".

وفي الحقيقة، كنت أعرف تماما أن مشـاريع زواج عمتي صارت مع مـرور الوقـت مشـاريع وهميـة، وأن حكاياتها عن الزواج باتت من نوع أحلام اليقظة، وقد كنـت أتماهى مع تلك الحكايات وأعلن أسفي لها وأعـدها بـأنني سوف أحل مشكلتها في أقرب فرصة وأتزوج، مضيئة لهـا الضوء الأخضر فتتفضل وتتزوج بمن تشاء.

يوم الخميس الماضي، حلّت الذكرى السنوية الخامسة لوفاة أبي، فذهبنا إلى القرافة أنا وعمتي، أخـذنا معنـا وردا وخوصا وفطيرا وبرتقالاً وموزا وفلوسا فكة ودموعا كثيـرة اختلطت مع ذكريات جميلة، وجاء المقرئون فقرءوا القرآن. وبعدهم جاء عيال ونساء ورجال غاية في القذارة والبـؤس والفقر، فوزعنا عليهم ما حملناه ثم خرجنا ودعـوت عمتـي لتناول الغداء في مطعم فلفلة؛ طلبنا موزة لحم بالفتة ورحنـا نتذكر أبي ونحن نأكل وتدمع أعيينا حينًا ونضحك حينًا آخر وفي أثناء ذلك كان يداخلني شعور عميق بالضياع والحزن، وبأنني وحيدة تماما في هذا العالم وقلت لنفسـي بينمـا أنـا أراقب عمتي وهي تأكل وتدخن وتسـعل وتضـحك: قريبـا ستتحول هذه اللحظات إلى ماض وإلى تـاريخ، فكـم تبقّـى

لعمتي سنين في هذا العالم؟ وكم ستبقى من الوقت في هـذه الدنيا؟ وكم مرة أخرى سوف أكرر معهـا تلـك اللحظـات الخاصة جدا؟ ... تنهدت ولا أدري لماذا تـذكرت رودلفـو، وشعرت بحاجتي للحديث معه، قلت لعمتي فجأة:

ـ والنبي يا عمتي لمـا نرجـع البيـت، فكرينـي بمظروف قديم محطوط على الشفونيرة عندي، عاوزة أبص فيه.

ـ قضية مهمة جديدة؟! ردت:

ـ آه. قضية مهمة جديدة.

كررت وراءها دون أن أقول المزيد، حتـى أوصـد الباب أمام تيار فضولها الكاسح، ورحـت أواصـل مضـغ الطعام.

بدت الأوراق لي عند بداية مطالعتهـا، كصفصـافة عجوز في آخر الخريف، صفراء، هشة جافة، وقابلة للتهشم مع أية حركة أو أقل إهمال في تقليبها.

كانت من النوع الحكومي الأصفر القـديم، والشـبيه بكراسات المدارس الحكومية التي كانوا يسلمونها للتلاميذ في أول العام الدراسي، غير أنها ولمرور سنوات طويلة عليهـا

كانت باهتة بسطور زرقاء خفيفة ومتخشنة ومتخشبة عند الحواف وكأنها مومياء قديمة عولجت منذ زمن بالأعشاب حفاظًا عليها، ورغم أن من كتب هذه الأوراق استخدم قلم الكوبيا الأزرق وقد خبا لمعانه، إلا أن الكلمات فيها كانت مكتوبة بخط نسخ جميل وواضح لم يهضم الزمن حروفها بعد، وكان أكمل ما في الأمر هو أن كاتبها حرص على ضبط الكلمات بالفتحات والكسرات والشدات والسكونات، لتبدو الصفحات في النهاية وكأنها مخطوط قديم جدا، جدير بالعرض في متحف من المتاحف خلف واجهة زجاجية، ليتباهى به مديره أمام مجموعة من تلاميذ المدارس البائسين.

رحت أقلب في الأوراق بمنتهى الرهافة والحرص، إذ كنت أخشى أن يتكسر بعضها، ولاحظت أنها غير مرتبة وفقًا للترتيب الرقمي التصاعدي، وكانت الصفحة ٢٩ هي أول ما صادفني، ولكن ولحسن الحظ وجدت الصفحة رقم ٧ ثم رقم ٩، ثم ١١. كانت صفحات كثيرة ضائعة ومفقودة ويبدو أن جدة رودلفو الهندية كانت تنتقي ضحاياها من الأوراق بشكل عشوائي ودون أدنى تمييز لأعمارها، لتقدمه كقرابين لآلهة السحر الهندية، حتى يدفعوا عنها وعن أبنائها

الشرور ... شعرت بالغيظ من تلك الهندية التي لا أعرفهـا وما فكرت يوما أنني سأفكر فيها والتي تباعد بينـي وبينهـا عقود طويلة من السنين والمسافات، وتصورتها وهي جالسة تتربع على الأرض تشعل النار وتقرأ تعاويـذها الغامضـة وتنكل دونما رحمة أو شفقة بتعويـذة رودلفـو المفترضـة للوصول إلى حقيقة جده الضائعة.

داخلني أسى وحسرة حقيقيان على مـا ضـاع مـن الأوراق، وإن كنت قد بدأت استشعر نوعا من الضيق والملل أيضا، فقراءة هذه الأوراق سوف تكون مهمة ثقيلة وصـعبة بالنسبة لي في النهاية، أولاً يكفي ما أقرأه من أوراق القضايا ومحاضر التحقيق وقرارات الاتهام كل يوم؟، إضافة إلى أن قراءة الكلمات المضبوطة والمشكلة رغم إعجابي شكليا بها، مسألة غير مستساغة أو مقبولة على الإطلاق، فأنـا وربمـا جيلي كله لم يتعود على ذلك أثناء تعلمه العربية بالمـدارس، فجيلي هو جيل " شرشر نط عند البط فلفل شـاف "، ولـيس جيل أ ب تَ ثَ جحن أكل رزا، والتشكيل عنده لا وجود له منذ بدايات تعلمه العربية بالمدارس، قلت لنفسي، لا بـأس، سأقلّب بسرعة في الصفحات ولو وجدت اسـما أو عنواناً ـا

يدلني أو يقودني إلى عائلة رودلفو، سأكون سـعيدة الحـظ ولسوف أبذل جهدا لاقتفاء أثره ولابد أن أنجح إن شـاء ا ، فعثمان أو الشيخ أوثمانو لن يكون مقطوعا من شجرة بأيـة حال من الأحوال، ولابد وأن يكون له أبنـاء أو أقربـاء أو أحفاد موجودون حتى الآن وعلى قيد الحياة، وبمكان ما فـي مصر وحتى يومنا هذا.

لكني وبعد قليل من التفكير، رحت أتسـاءل أيضـا: ماذا سيكون الأمر عليه إن لم أجد في هذه الأوراق ما يدلني على عائلة رودلفو أيضا؟ ماذا سأفعل وكيف أتصرف؟

قررت في النهاية ألا أكـون متشـائمة وألا أسـتبق الأحداث، وشرعت في قراءة الأوراق بعد أن توكلت على ا وطلبت من عمتي أن تعزمني على شاي بنعناع وسكر خفيف تعمله بيديها الحلوتين.

رحت أرتب الأوراق بحرص وحنو وتعاطف، وكأنها مجموعة أطفال نجت من مذبحة حقيقية وليست أوراقًا تبقّـت من حرائق جدة رودلفو السحرية، لكني وبينما كنت أفعل ذلك لم أكن أظن أو أدري أنني سوف أقع أسيرة سحر من نـوع آخر، سحر غامض غريب، يوقظ ولا يخدر، ينبه ولا يغيب،

وكنت لا أعرف على وجه التحديد، هل كانت جدة رودلفـو تقف وراء كل هذا أم ماذا؟

أوراق عثمان حنفي

الصفحة ـ ٧ ـ

ثم إنني رتبت أموري والضيق واليأس يأخذان منـي مأخذًا، وقلت لروحي: حسبي ا   ونعم الوكيل منكم يا ظلمـة يا كفرة، وكنت أقصد حكومة الخديوي وعسكره، والتي مـا بات خافيا على أحد الآن ظلمها وافتراؤها فمالي أنا والابتعاد عن الأوطان، فالغربة ليست لأمثالي، وليتني كنت ذاهبا إلى مكة أو ذاهبا إلى القدس، بل أنا ذاهب إلى بلاد بعيدة، غريبة لا يعلم ما بها إلا ا ، وكان ما يؤرقني هو أنني لم أكن موقنًا من زمن بعينه أعود فيه إلى دياري، ولا زمان أعقد فيه عقد لقاء مع أحبتي وأترابي، ولولا ما يمكن أن يقال عني، لكنت بكيت كما تبكي النساء، لكنني تجلدت وتماسكت وأنـا أتـذكر قول الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرني

ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أتمنى الشر والشر تاركي

ولكن متى أُحمل على الشر أركب

ويوم الرحيل، كان يوما مهولاً مشهودا في " حفْـن " وما جاورها من بلدات، ففيه بكى بعض من رحمي من ذوي الشوارب، قبل العيـال والنسـوان، وخرجـت البلـد كلهـا بصغيرها وكبيرها لتوديعي، وألقى الشيخ عبد المتعال مسعود حبيبي ونديمي شعرا كثيرا من عنده ومن أوابد الكلمات وكذا قصيدة " ودع هريرة إن الركب مرتحـل"، وكـان البكـاء والولولة يسمع عن بعد، وبدا الأمر وكـأني ميـت ولسـت مسافرا في مهمة فرضت علي فرضا، وقد حاولـت تهدئـة الجميع قائلاً: ما كتب على الجبين لا بد وأن تشوفه العـين، وإن ا قدر وشاء وإنني سأعود إلـيهم سـالما بإذنـه فـي القريب، وكلاما كثيرا من هذا النوع مستهدفًا تهدئة الخواطر، وتسكين النفوس، وظللت أعيد وأزيد في الكلام حتـى يهـدأ الجميع، والحقيقة أنه كان يكمن في داخلي على رغـم كـل شيء، مؤمن يدرك أن الموت إنما هو المـوت وإن تعـددت الأسباب سواء هنا أو هناك وأن كل من عليها فان ولن يبقى غير وجه ربي ذي الجلال والإكرام، ثم إنني قلت للجميع أن الحرب ليست كاري وهي ليست لأمثالي، وإنمـا أنـا شـيخ ذاهب مع الأورطة لتأدية واجبات الدين وفروض الشـريعة

ووجودي إنما هو ضرورة سوف تفرضها ظروف ما سيكون من استشهاد وموت، ولكني كنت أقول متأسيا مواسيا لروحي أيضا وقد تمثلت قول القائل:

أرى لدهري إقبالاً وإدبارا
فكل حين يرى للمرء أخيارا
يوما يريه من الأفراح أكملها
يوما يريه من الأحزان أكدارا
وكل شيء إذا ما تم غايته
أبصرت نقصا به في الحال إجهارا
فلا يغر لصفو العيش مرتشد
لأن إحسانه ما زوال غرارا

ولا يخفى أنه كان بنفسي، أثناء ذلك، الكثيـر مـن الخوف والوجل والاضطراب والوحشة للمغادرة والبعد إلـى أرض مجهولة، وبقعة ما كنت قد سمعت عنها قط، أو عرفت أنها أرض معلومة من أراضي المسكونة، ولكني كنت أقـول متأسيا لروحي أيضا: ما قدر ا شاء، وكانت شـدة تـأثري إنما هي على أولاد أختي حميدة: على وحسين وعبد الصـمد وخضرة، وهم العيال الأيتام الذين فقدوا أباهم وقـت وبـاء

الهواء الأصفر المعروف بالكوليرا، وكنت قد خلصتهم مـن رقبتي التي تكالبوا عليها ساعة الوداع بصعوبة، وأنا أعـدهم بجلابيب جديدة وحلاوة من بر مصر عند عودتي، ودمـوع العين محتبسة تكاد تفر من مآقيها.

الصفحة ـ ٩ ـ

ولقد ارتحلنا في زمهرير الشتاء، عند صباح يوم لـم تطلع شمسه، كان الثامن من ينـاير الإفرنجـي، أي طوبـة المصري من العام ١٨٦٣ من بور الإسـكندرية المعمـورة على النقالة الفرنساوي المسماة " لاسين "، وكانت الأورطـة بكامل لباسها وعتادها، وكان جل جنودها شـبانًا ذوي بنـى قوية ومنظر حسن كخليفة سودان، وبخيت خميس، وكـودي الفيل، وسعيد الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وأنجلو حبيب ا ، وسعيد كورد كتلي، وكوكو سنداله، وجفوله درع الفيل، ونياننده، وغيرهم بالإضافة إلى ترنبيتـه جـي فـرج صدق، وبروجي عبد النبي عبد الكريم، وجميعهم صرفت لهم قبل رحيلهم ملابس من صنف التيل بسترات قصيرة، بحيث كان لكل جندي طقم وكسوة وقميص ولباس وزوج جـوارب وسجادة وبطانية وكبود، وكان لكل ضابط كسوة من الكساوي

المخصصة للضباط المشاة وإسبالتات حسب علو رتبة كـل منهم، كما أن الخيام التي ستكون مأوى لهم، تم اختيارها من الخيام الجديدة النظيفة، والحقيقة أن زي الجنود كان غاية في الروعة والاحتشام، فالبزات المطبقة على الصدور العريضة ذات الياقات القصيرة والأزرار النحاسية المصطفة، أضـفت على أفراد الأورطة جلالاً وجمالاً، وكانت ألبسـة الضـباط كألماس أفندي تزيد على ألبسة الجنود في ضروب التطريـز وتزيد على كسوتهم أيضا بصدرية ذات أزرة يلبسونها تحت السترة، وكانت جميلة تكسب الضابط رونقًا ومهابة، وكانـت ملابس الضباط تختلف عن ملابس الجند في نـوع الجـوخ ولونه أيضا، وكذا أنواع الشارات التي تبين الرتب فالأمباشي كان يحمل على صدره شـريطًا واحـدا والجـاويش اثنـين والباشجاويش ثلاثة، والصول نصـف هـلال مـن الفضـة والملازم الأول نصف هلال ونجما من الفضة أمـا الـذهب فكان للقائم مقام الذي يؤشر بنجم ذهبـي وهـلال مرصـع بالألماس، وهكذا.

وكان مولانا الخديو سعيد قد أمر وشـدد علـى أن تكون ملابس الجنود غاية في الدقة والإتقـان حتـى يبـدوا

بمظهر مشّرف مشوق والحق أقول ـ كان مهووسـا بكـل مظاهر العسكرية وعنجهيتها، وكان مثلـه الأعلـى ـ كمـا أدركت من ألماس أفندي ـ العسكرية الفرنساوية وخصوصا هندامها، وهو الذي ابتدع التجنيد على هـدي جـدول عـام للمواليد في عموم أنحاء القطر، لتكون الدعوة إلى العسكرية في حينها أمرا يتم من تلقاء ذاته، فضجت البلاد فـي بـادئ الأمر وتململت، لكنها انتهت إلى الطاعة والامتثال، وخـلال لحظات الصعود على النقالة لاسين، بدا المشهد مهيبا، يجـل عن الوصف، وملجما إلجاما لبلاغة البليغ، ويعلو عن قـدرة اللبيب الأريب فما إن بدأ الترنبيته جي فرج صدقي يصـدح ببوقه بمارش الوداع والمغادرة، حتى جاشت مشاعر جميـع الراحلين والمودعين لهم، ولا أظن أنني سأعيش مثـل هـذه اللحظات مرة أخرى مهما حييت، وقد اقشعر بـدني رهبـةً وفرقةً والتياعا، ونظرتُ الوجوه المجتمعة جميعها، فأبصرت دموعا فرت من المآقي ودموعا دونها تحجرت واستقرت في مكامنها، وثمة مرارات استشـعرت طعمهـا فـي الحلـوق اعتصرت الجميع، وعبر عنها بالتنهدات الطويلة المتحسرة،

ناهيك عن جز الأضراس، وابتلاع الهواء وقد غـاب عـن الصدور بين الفينة والأخرى.

الصفحة ـ ١٠ ـ

وقد خاضت لاسين غمار البحـر الرومـي، حتـى وصلت بنا إلى الميناء الفرنساوي طولون، وهناك خرج إلينا ضباط وجنود من الفرنساوية المعنيين والمعينين للحرب فـي مكسيكيا، وكان كل شيء على ما يرام، غير أنهم تنبهوا إلى أن الأورطة المصرية لديها سلاح يخـالف أسـلحة الجنـود الفرنساوية، إذ كانت قد صرفت في مصر للعساكر بنادق من نوع الشخشانة المقلوب ومنعـت عـنهم الـذخائر إلا حـين الوصول إلى مكسيكيا خوفا من استخدامها في مـا لا تُحمـد عقباه لا قدر ا ، مثل أن يحدث تمرد من الأنفار والجنود، أو أن يستخدم في منازعات بين أفراد الأورطة، ولعل ذلك كان واردا، بسـبب رداءة الأطعمـة، ومشـقّة السـفر، وكثـرة المشاحنات الناجمة عن ذلك.

وبدأ تداول الأمر بين القادة الفرنساوية والمصـرية بعد أن ظهرت المتاعب والعراقيل من جهة الذخيرة، فما كان من الفرنساوية إلا أن قاموا بتوزيع أسلحة فرنسية على جميع

أفراد الأورطة، وتم إيداع أسلحتهم فـي مخـازن الجـيش الفرنسي بطولون، على أن يستردوها عنـد رجـوعهم إلـى مصر، وكـان التفـاهم بـين أفـراد الأورطـة المصـرية والفرنساوية صعبا للغاية في بداية الأمر، فلا أحـد يعـرف رطانتهم اللاطينية، وهم لا يعرفون لغة القرآن، غير أن هذه المعضلة سرعان ما حلّت وتم تداركها، فقد قام الفرنسـاوية باستخدام بعض الجنود الجزائريين الذين كانوا معهـم فـي حرب مكسيكيا للترجمة بينهم وبين سائر الجنود مـن أبنـاء الفرقة، فتم معرفة احتياجاتهم وما تعذر في معايشها وحياتها كل يوم. فلما تم ذلك كله وانتهى، واصلت لاسـين الإبحـار مخترقة المحيط العظيم، ذا الأمواج الجبارة والمياه التـي لا حصر لها، وخلال السفر الطويل الذي دام سـبعة وأربعـين يوما، مات سبعة من الجنود، خمسة منهم أصيبوا بحمى حار الأطباء في توصيفها وعلاجها فتم عزلهم بعـد أن عجـزت العقاقير والأشربة عن علاجهم، أما الآخران، فقد كان مـن أمرهما أن أحدهما سقط من أعلى الصاري أثناء صعوده إليه عند الظهيرة بسبب اختلال توازنه وتعذر انتشـاله لهيجـان الأمواج وعلوها، والآخر اختفى ولم يعثر له على أثر حتـى

الآن، ولم تعرف كيفية موته، وهذا المسكين مثله مثل الكثير من الجنود الذين في الأورطة، كان قد تم الإتيان به من الغابة وهو لم ير البحر أبدا، وكان يظن مثلما ظن غيره من الجنود أمثاله أن هدير المحيط إنما هو زئير وحش مغمور بالمـاء، سيخرج على حين غرة ويلتهمهم، فكان المسكين يصرخ بين حين وآخر دون أن يجدي معه تكدير أو ضرب أو تقويم، أو أن تفلح معه عقاقير مهدئة، أو قراءة آيات قرآنية مطمئنـة، كنت أقرأها على رأسه وقاوم برقايته، والمصيبة أن المسكين كان مصابا أيضا بآفة المشي أثناء الليالي، فرجح بعضهم ـ وقد يكون مصيبا ـ أنه سار والجميع نيام، وربما ألقى بنفسه إلى الماء دون أن يدري أو يسمع نداءه طلبا للإنقاذ أحد، غير أن جثته لم تظهر قط ولم تطفُ طوال الأيام التالية لاختفائه، فصلينا عليه صلاة الغائب، مثلمـا صـلّينا علـى الخمسـة الآخرين الذين تلفوا، ثم إننا ربطنا كل واحد مـنهم بحجـر، وألقيناهم في الماء حتى تغوص جثثهم فـلا تطفـو وتأكلهـا الأسماك المتوحشة.

ثم إنّه يوم وصولنا إلى بلدة تدعى فيراكروز وهـي أكبر فرضة في مكسيكيا ...

كان الثالث والعشرين من شهر فبرايـر الإفرنجـي، وكانت الأورطة بقيادة البكباشي جبرة محمد أفندي ووكيلـه ألماس أفندي وهما من أفاضل الرجال وأشدهم عزا وبأسا.

ولم يكن ذلك الاضطراب، وكما سبق أن قلـت، إلا بسبب أنني لم أر من قبل كل هذا الماء المالح الكثير، فحتـى بحر النيل في وقت أسمى الفيضانات لم يكن ككل هذا المـاء الهادر الذي رأيته بالمحيط، فأي وجل داخلني، وأي خـوف أخذ بي من ناصيتي حتى أخمص قدمي، فلئن احتملت بحـر الروم رغم مصاعبه على مضض وكره، ضارعا صـائما، مصليا، طالبا من الرحمن الرحيم أن يرحمنا برحمته، ويمـن علي وعلى من معي بالنجاة، فما بالك بهذا المحيط الجبار ذي الأمواج المصطكة المصفقة التي راحت تتلاعب النقالة فـي رعونة واستخفاف وكأنها ورقة في شجرة تطوحها أراجـيح الريح، ورغم أنني منحت رتبة نفر، ودربت على اسـتخدام البارود، وجربت في العوم والسباحة، إلا أن الخـوف ظـل ينازعني ويعصف بقلبي، ورغـم مـودة الفرنسـاوية لـي، واحترامهم لكينونتي الدينية في كل سكنة وفي كل هنة عنـد

تعاملهم معي، إلا أن الطعام لم يكن على ما يرام وقد تعفنت بعض مؤن الفول والأرز بسبب رطوبة البحر، ونفقت بعض الخيول، وبقيت الخيالة دونها على أمـل استعواضـها عنـد الوصول، كما أن الصراصير البحرية الطيارة التـي لـم أر مثلها حجما من قبل، قد عاثت فسادا في نواشف الطبخ مـن أمثال البامية والملوخية والكشك الصعيدي والفريـك، لكـن يشاء السميع العليم أن يكفينا ما تبقى من مؤن حتى وصـولنا إلى فيراكروز.

الصفحة ـ ١٨ ـ

وكان جل الجنود والأنفار من الرجال السودان الذين جلبوا جلبا من بلاد السودان والنيل التحتاني ومناطق العبيد، وأكثرهم كانوا ممن صيدوا أو بيعوا في أسـواق الخرطـوم وكان الباشا الكبير ولي النعم يأتي بهم للمتاجرة ضمن تجارته الواسعة مع الإفرنج، وكان هؤلاء في جملتهم شبانًا حـديثي العمر ذوي قامات مديدة وجسوم قوية شديدة وهم لا يشبهون في لونهم أهل أمي الذين زرتهم معها فـي صـغري مـرة نواحي بلاد النوبة، وكانت الحكومة قد اختارتني لهذه البعثـة أيضا بسبب لوني وأصلي السوداني النوبي، وكنت قد ابتليت

بداء الجهادية، وخدمت في الجيش قبـل أن أكمـل تعليمـي الأزهري منذ زمن، فقد سرى وطبق علي ما سنّه الخـديوي سعيد من سنة وهي أن كل شاب يبلغ السادسة عشـرة مـن عمره يخدم في الجيش إلزاميا سنة واحدة لا غير، فلما أبليت فيه بلاء حسنًا، أي الجيش، وكنت نموذجا للجنـدي الكـفء استبقوني فيه، وصرت نفرا ولكن ذلك لم يحل دون حرصي على إكمال علومي الأزهرية التي سعيت إليها سعيا دءوبـا، وقد علمت من ألماس أفندي وهو سوداني الأصل، أن شروط الفرنساوية مع الخديو كانت أن يمدهم بجنود مـن السـودان السود، وكذلك كل من يذهب معهم ويخدم عليهم بأي أمر من الأمور، وقال ألماس أفندي أن الفرنساوية ما أرادوا ذلـك إلا بسبب أن سواد البشرة يقي ويقاوم ما بهذه البقعة مكسيكيا من أمراض وصعوبات لا يقوى عليها البيض مـن الفرنسـاوية والفرنج، ورغم أن أبي أبا عن جد كان مـن بلـدتنا حفْـن السوهاجية إلا أن أمي كانت نوبية وهي التي أنعمـت علـى العبد بسواد الجلد ودكونته، وكذا كثافة الشعر وخشـونته، وكانت الوالدة في الأصل جارية أعتقها الوالد بعد أن بنى لها وأنجبتني لأن زوجته الحرة الأولى لم تنجب له غير الإناث،

وها هي حكمة العزيز الجبار تتجلى فأذهب إلى ما لم أفكـر فيه يوما ولا جال بخاطري أبدا من هجرة الأوطان ومفارقة الأحباب والخلان، وأحمد ا أن أمي ماتت قبل أن ترى هذا بعينيها وإلا كانت تحسرت وتلوعت وكمدت موتًـا لفراقـي وكما قيل:

وعودت نفسي الضيق حتى ألفته

وأخرجني حسن العزاء إلى الصبر

الصفحة - ١٩ -

ومن المفارقات في هذه الرحلة هو أنني تعرفت على بعض الطباخين المجلوبين من أسوان لمباشرة كل ما يخص طعامنا وشرابنا أثناء الرحلة وقد رسـموا جمـيعهم جنـودا أيضا، وكان من بينهم النفر سلمان الدرديري الـذي طالمـا كنت أسامره في الليل، وهو من اشتهر في الأورطة بعمـل الأعمال وفك العكوسات وإتيان التنجيم، وقد قال أنه نجـومي أبا عن جد، لكن أباه حرم عليه كسب قوته من هـذا الأمـر واستحلفه على المصحف أن يكون كل ما يطلع عليه خدمـة لوجه ا تعالى وفعل الخير، وكنت كثيرا ما أمازحه وأسمعه ما قاله البهاء زهير في ذلك إذ قال:

لا ترقب النجوم في أمر تحاوله   فا يفعل لا جدي ولا حمل
مع السعادة ما للنجم من أثر   فلا يغرك مريخ ولا زحل
الأمر أعظم والأفكار حائرة   والشرع يصدق والإنسان يمتثل

فكان يتضايق قليلاً وكأنه يستشعر أنني أستخف بمـا يستهويه، لكنه سرعان ما يتفرس في وجهـي ويـبش مـرة أخرى.

الصفحة ـ ٣٥ وما تلاها ـ

وفي ٢ أكتوبر الإفرنجي سنة ١٨٦٣، وفي السـاعة السابعة صباحا بارح القطار العادي محطة فيراكروز، ميمما السوليداد وكان يقوم بحراسة هذا القطار أربعة عشر جنـديا منهم سبعة من البلوك الأول من بحارة جزر الأنتيل والسبعة الآخرون من الأورطة السودانية المصرية وهم بخيت بدروم الجندي الأول وإبراهيم عبد الرحمن ومحمد عبد ا ، وعمر محمد، ومحمد علي، وجميعهم جنود، وكان القطار مؤلفًا من عربات للمسافرين، وكان من بين هذا العدد مسـيو ليجييـه رئيس أورطة في ألاي الأجانب، ومسيو شرر مـلازم مـن بلوك المهندسين الوطني ومن أهـالي جوادلـوب، ومسـيو بوتنايل ملازم ثان في حرب القارات جريلا ومسـيو ليـونز مدير السكك الحديدية، ومسيو فرنك رئيس مهندسي السـكك

الحديدية، ومسيو سافيلي قص السوليداد، وعدد كبيـر مـن النساء والأولاد والعبد ساطر هذه السطور، وكان القطـار متجها إلى تيزاريا بسرعة تتروح بين ١٥ و ١٦ كيلو مترا في الساعة ووصل إلى موضع يقال له لوما دولاريفستا حيث الطريق عرضه أربعة أمتار تقريبا بين سفوح الجبال المجللة من الجانبين بالأحراش والآجام الكثيفة وكـان فيهـا مـنحن وعر، وعندئذ لمح سواق القطار بعض القضبان منزوعة من أماكنها وفي الحال حول قوة البخار محاولاً الرجـوع إلـى الخلف، غير أن القطار برمته استمر هنيهة سائرا في طريقه مدفوعا بقوة سرعة سيره، فسقطت عندئذ العربات الأولى ولم يستطع أحد أن يدفع حدوث هذه الكارثة.

وكنت خلال ذلك منشغلاً بالفرجة على تلك الآجـام الشاهقة ذات الألوان الخضراء المتدرجة ومختلفـة التبـاين والتي ما كنت قد شاهدت مثلها من قبـل، ولقـد روى لـي تفاصيل ما حدث شهود العيان الذين كانوا في العربة الأمامية بالقرب من السائق، وقد قال لي بخيت بدروم الجنـدي الأول أنه سمع بعد سقوط العربات الأولى دوي إطلاق المدافع بشدة من جانبي الطريق، وكان اتجاه الطلقات من أعلى إلى أسفل،

ولم يكن في حيز الاستطاعة رؤية المهاجمين، فجرح سـائق القاطرة وشخص من المسافرين، وعلى إثـر ذلـك، أسـرع بالرجوع من العربات كل من نزل منها واتخذ القائد ليجيبـه خطة الدفاع، ونزل ليفحص الموقع وينظر فيما إذا كان فـي الإمكان الهجوم على العدو من الجنب، وفي غضـون هـذا الاضطراب الشامل وبلبلة الأفكار الناشئة من خروج القطار عن طريقه، ومن ولولة النساء وصياح الأولاد، وحيرة كافة المسافرين، ما كان يساور رؤوس السبعة المصـريين غيـر فكرة واحدة ألا وهي القيام بواجب وظيفـتهم وأن يسـتعدوا لإطلاق النيران على الأعداء، إذا لاحت أشـباحهم وبانـت، وكانوا ينتظرون وهم متخذون من جوانب العربـات مـوقى لهم، في الوقت الذي يشتبكون فيه في القتال مع العدو برباطة جأش جدية بالثناء العظيم والإعجاب المتناهي، وعندما وقـع نظر جميع رجال الحرس على القائد ليجيبه وهو نازل مـن العربة تبعوه ليقوموا بتنفيذ أوامره، ورغـم شـدة إطـلاق النيران، أمكن استكشاف مواقع العدو بـلا عـائق لأن هـذه النيران مع شدتها لم تكن فتاكة، وما ذلك إلا لأن المكسيكيين

كانوا مضطرين أن يلبثوا محجوبين عن الأعين كيلا تصوب نحوهم طلقات البنادق.

ولما تحقق القائد أنه ليس في الاستطاعة الهجوم على العدو من الجنب، أراد أن يهاجمـه وجهـا لوجـه، فقـذف بالأربعة عشر جنديا إلى المرتفعات، ولكن هذه كانت مغطاة بالآجام المتناهية الكثافة فما استطاعوا تسلقها واضـطرا أن يرتدوا على أعقابهم واتخذوا من العربات مرة أخرى وقايـة لهم، وفي غضون هذه الحركة أصيب القومندان ليجييه بجرح مميت وجرح أيضا جندي من البحارة، فبث هذا الحماسة في نفوس المهاجمين فضاعفوا الطلقات، وصار لا محيص مـن التقهقر، وفي اللحظة التي كان يصعد فيها القومندان ليجييـه إلى العربة بمساعدة بلال حماد، أصيب هذا بطلق ناري فخر صريعا وقضى نحبه وعندئذ تطوع بخيت بـدروم، وأتـوم سودان وحملا أولاً القومندان ليجييه ووضعاه في عربة السكة الحديد، ثم رجعا إلى بلال حماد، وكانت تحميهما فـي هـذه الفترة نيران من بقى من الحرس المبعثـرين خلـف جميـع العربات.

ومن هذه الساعة تسلم الملازم شرر القيادة العامـة، ورتب رجاله بطريقة عملية تُمكّن من تلاشي كـل محاولـة هجوم يقوم بها المكسيكيون لأخذهم عنوة، ثم أرسـل أحـد رجال السكة الحديد إلى تيجيريا وإلـى فيراكـروز ليعلمـوا رياسة القومندانية بموقفه ويطلبوا منها إرسال نجدات.

وكانت تيجيريا في ذلك الوقت تحتلها فصـيلة مـن السودانيين المصريين مؤلفة من ضـابط واحـد، وخمسـة وأربعين جنديا وكانت هذه الفصيلة تحت إمرة الملازم الثاني رازود من ضباط الآلاي الأجنبي، وهذا الضابط كـان قـد أخبره جواسيسه من الصباح الباكر بأن عـددا عديـدا مـن المكسيكيين يتألف من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائـة رجـل تقريبا يضربون في جوانب القطار، فما كاد يبلغه هذا النبـأ حتى قام بكتيبته المصرية السودانية مسرعا وولـى وجهـه شطر اللومادو لاريفيستا سالكًا أقصر الطرق.

واستمرت رحى الحرب دائرة فـي غضـون هـذه الفترة، وكان رجال حرس القطار يصوبون بإحكام بنـادقهم على المكسيكيين ولابد أن نيرانهم ألحقت بهـؤلاء أضـرارا بالغة، ويستدل على ذلك من أنهم أرادو مرارا تخليصهم مما

حاق بهم من الضيق والكرب أن يحاولوا النزول من الجبـل لينازلوا الحرس جسما لجسم، ولكن محاولاتهم ذهبت هبـاء وفشلاً تاما، وقتل أتوم سودان رجلين منهم كانا قد وصلا إلى مكان لا يبعد عنه سوى بضعة أمتار، وظل العدو يشن الغارة أكثر من ساعة حتى بدا في طلقاته النقص، ثم فتـرت فجـأة وانقطعت بعد دقائق معدودات ومع هذا لم يشأ مسيو شرر أن يخرج عن دائرة خطة الدفاع خوفًا من أن يكـون انقطـاع النيران حيلة مدبرة، وظل وقتًا يسيرا ملازما التربص، ثـم عقب ذلك ذهب رجل من الهنود المحليين للاستكشاف ولـم يلبث أن عاد وأخبر أن المكسيكيين أخبروا رئيسـهم بقـدوم حامية تيجريا فشدوا رحالهم وتركوا الميدان اتقاء الوقوع بين نارين.

وتسنى عندئذ لحرس القطار أن يستريحوا ويتنفسـوا الصعداء ويعاونوا المجروحين، وبلغت الخسـائر مبلغًـا لا يستهان به، فأدركت المنية القائد ليجييه وكان بلال حماد على وشك أن يطلع سره الإلهي، فوقفت على رأسه مع الـواقفين وأنطقته الشهادتين بصعوبة، ثم أذنّت الأذان في أذنه والدموع ذوارف من الجميع عليه حتى أكرمه العلـي القهـار بلقائـه

وأراحه مما هو فيه من عذاب ومعاناة، وكان القس سافيللي معنا، فقام بواجبه الديني تجاه القائد ليجيبه أيضا، وكذا السائح المكسيكي الذي كان في القطار وقتل كذلك على الرغم من جروح ساقه وكتفه ونزيف الدم منه خلال ذلك الوقت.

وكان مما أفاد في عدم وقوع خسائر كبيرة، هو وجود تلك الكوكبة الراكبة المؤلفة من خمسين فارسا من جنود الأورطة، والتي كانت قد تقررت من قبل لتقوم بالاستكشاف وحراسة السكك الحديدية، على أن تعامل معاملة المساعدين المكسيكيين من حيث الراتب، فيتحصل لأفرادها ما يتحصل للآخرين من مكسيكيا على مكافأة إضافية من بادية فيراكروز نظير معاونتهم لشرطة المدينة.

رفعت رأسي عن أوراق الشيخ عثمان، وفركت عيني قليلاً، ربما لأتيقن من أنني لست في حلم من الأحلام، وداخلني شعور بأنني بطل هـ. د. ويلز في رواية آلة الزمان التي كنت قد قرأتها مبسطة ذات يوم وأنا تلميذة صغيرة في المدرسة الإعدادية ، وساءلت نفسي: هل دخلت آلة الزمان حقًا؟، فلقد كان كلما قرأته لتوي يتجسد أمامي وأراه شخوصا ومواقف، وكأنني أتفرج على فيلم من أفلام الغرب الهوليودية

في السينما ، مددت بصري عبر النافـذة المفتوحـة علـى مصراعيها أمامي حيث البناية العالية المحاصرة للأفق، وقد رسم عليها شاب بملابس الكاوبوي يمتطـي صـهوة فـرس ويدخن سيجارة وقدح كتب فوق قبعته " وسترن مذاق الغرب " ... تنهدت وتساءلت مرة أخرى " هل كان الشيخ عثمـان مؤرخًا؟. أم أن ما كتبه كان نوعا من المذكرات الشخصـية، ولماذا سجل تفاصيل المعارك على هذا النحو الدقيق وهو في غربته البعيدة؟ ".

أخرجني صوت عمتي الناعم من تأملاتي، وجاءني ممزوجا يضجر، ينذر برغبتها في جولة من المشاحنات معـي بحثًـا عن إثارة وتزجية للوقت، إذ سمعتها تقول:

ـ مالك قاعدة مبحلقة في السقف وكأنك ناوية أن تحضـري الأرواح؟، أعمل لك شاي، أنا عاملة لنفسي قهوة؟.

ـ آه. عاوزة الشاي.

ـ في نادي السينما الليلة فيلم لجون واين، يتهيأ لي أنه حلو، لو خرجت هاتِ معكِ خلطة لب أبيض وفول سـوداني مـن غير ملح.

عمتي مولعة بالفرجة على أفلام الويسترن، ومنذ أن وعيـت عليها وأنا طفلة صغيرة، كانت تدفع إلى روحي بمهرجان من الفرح، عندما كانت تصحبني معها لمشاهدة واحد مـن هـذه الأفلام في سينما روكسي أو سينما أوديون أو مترو، لكنـي في الحقيقة ، لم أكن أنبهر بهذه الأفلام، قدر انبهاري بالستائر المخملية العالية الضخمة، وبأسد شركة مترو جولدن مـاير الرابض على الشاشة وهو يزأر محركًا رأسـه الملبـد ذات اليمين وذات اليسار، ثم ما يكون قبل العـرض مـن أفـلام كارتون كانت تقدم للأطفال في ذلك الزمن البعيد ولا أراهـا في السينما الآن أبدا، كدت أقول لها: اقرئـي أوراق الشـيخ عثمان، إنها أقوى من جون واين وكلينت اسـتوود، لكنـي سرعان ما تداركت أن هذه الأوراق ليسـت مشـاهد خيـال وليست للمرح والتسلية، بل هي أوراق تاريخ حقيقي لبشـر من لحم ودم، بشر عاشوا وماتوا دون أن ينتبه إلـيهم أحـد، ودون أن يتذكرهم أحد ذات يوم.

فكرت وأنا أذيب ماسات السكر الدقيقة في بحيـرة اليـاقوت الساخن القابعة داخل الفنجان الذي وضعته أمامي عمتي، أن آخذ هذه الأوراق، وأقدمها لواحد من أسـاتذة التـاريخ فـي

الجامعة، فربما يجد فيها ما لم أجده أنا، باعتباره متخصصـا في هذا المجال، وفكرت أن أهدي هذه الأوراق القديمة لـدار الكتب والوثائق المصرية، بعد أن أقنع رودلفو بذلك، ولكـن شعورا غريبا سرعان مـا داخلنـي، إذ أحسسـت أن هـذه الأوراق ملكي شخصيا ولا يجب أن أفرط فيها لأي شخص أو جهة مهما كانت الأسباب، وربما كان مرجع هذا الشعور هو حالة الفضول العارم التي تملكتني، ولمعرفة مـا الـذي تحويه بقية الصفحات التي لم أقرأها بعـد، وبـدأت أتفهـم أحاسيس أولئك الذين يعثرون على قطع أثريـة قديمـة، أو يكتشفون بالصدفة أشياء تاريخية؛ إنه شعور نـاعم، أملـس، يتسلل شيئًا فشيئًا كسيل طاغ ويكتسح النفس مجتاحا كل رغبة مبهمة وكامنة في أعمق أعماقها، تهفو إلى العيش في زمـان ماض قديم، زمان مستحيل التحقق أو الحدوث أبدا، فالحقيقية هي أن الإنسان لا يحلم بالمستقبل، لكنـه يحلـم بالماضـي، ماضي أجداده الأقدمين الذين لم يعايشهم، ولـم يلمسـهم أو يتحسسهم أبدا كبشر وكحيوات عاشت وينتمي إليهـا، لكنـه يتمنى الحلول فيها ليخوض في عوالمهـا السـرية المبهمـة البعيدة.

انقضت عدة أيام أخرى، قبل أن أعود ثانية على أوراق جـد رودلفو المثيرة، كنت قد انشغلت خلالهـا بالعمـل اليـومي الضاغط لمهنة المحاماة، فقد سفحت وقتي خلال هذه الأيـام في الجري أو اللهاث داخـل أروقـة المصـالح الحكوميـة للحصول على توقيع من هنا أو ختم مـن هنـاك، أو فـي استخراج ورقة رسمية تضاف إلى ملف قضية كـدليل مـن الأدلة أو ثبت من الثبوت، وكان ذلك يستلزم أحيانًا، الوقوف طويلاً أمام الموظف المختص في طابور من الطـوابير، أو العودة في اليوم التالي لأن الموظفة المسئولة عن ختم النسر حدثت لها ظروف طارئة وأخذت إجازة عارضة.

حضرت خلال هذه الأيام أيضا ندوة عـن " حـدود حريـة التعبير " في جمعية " نصرة الحق الإنساني " التـي أنتمـي إليها، واستمعت خلالها إلى أحناك كثيرة بقبقت بـالكلام دون أن أستفيد من ذلك شيئًا أو أخرج بنتيجـة عمليـة. عمتـي كعادتها، كان لها نصيب لا بأس به في التهام وقتي، فأصرت أن أذهب معها إلى شارع عبد العزيز، لتشتري سخانًا جديدا، بدلاً من التالف في البيت " لأنك شاطرة في الشراء يا خالـدة

وتعرفي الماركات الممتازة . والنتيجة كانت ضياع نصـف نهار حتى نعود بالسخان.

ويتم تركيبه لأنه ووفقًـا لعمتـي: إلا السـخان، لا يمكـن الاستغناء عنه والانتظار أبدا.

اليوم، ذهبت إلى مجمع المحاكم بالعباسية مـع عـدد مـن زملائي في المكتب، كنت في حالة مزاجية لا مبالية وأرغب برغبة حقيقية في النوم، رغم أنها كانت العاشـرة صـباحا، إضافة إلى ضيقي بالزحام وصداع خفيف يبـدأ عملـه فـي رأسي، كان دورنا في الرول هو التاسع، وبينما كنت جالسة مع زملائي ننتظر، وقعت نظراتي على مانشـيت بصـفحة داخلية من صفحات جريدة الأهرام، مما جعلني أتحمس قائلة لزميلي الجالس إلى جواري يطالعها:

ـ والنبي يا أستاذ سيد هات الجورنال دقيقـة واحـدة مـن فضلك، أبص فيه وأرجعه لك بسرعة.

كان المانشيت عنوانه: " بطولة الأورطـة المصـرية فـي المكسيك ".

وتحته كتب د. عبد المنعم الجميعي، أستاذ التاريخ الحـديث بجامعة القاهرة فرع الفيوم مقالاً قصيرا حول اشتراك الجيش

المصري في حرب المكسيك التي كانت ناشبة بين الولايـات المتحدة الأمريكية من جهة وفرنسا وأسبانيا من جهة أخرى، وبدا السبب مذهلاً بالنسبة لي ألا وهو أن إمبراطور فرنسـا نابليون الثالث طلب من سعيد باشا والي مصر آنذاك، مـده بفرقة من الجنود السودانيين لأن الحمى الصفراء منتشرة في المكسيك حيث تدور المعارك بين الطـرفين المتصـارعين والجنود الفرنسيون يموتون بهـا ولا يسـتطيعون مواصـلة الحرب نظرا لشدة حرارة الجو هنـاك وانتشـار الرطوبـة والمستنقعات.

تعجبت بشدة وتساءلت محدثة نفسي بصوت عال:

ـ طيب وما علاقة مصر بالمكسيك؟ المكسيك لم تشن حربا ضد مصر، ومصر بعيدة جدا عن المكسيك، فلمـاذا يقاتـل جنود مصر والسودان هناك؟

رفع سيد صاحب الجريدة رأسه مندهشًا عن جريدة أخـرى كانت معه وشرع في قراءتها وتساءل:

ـ مالك؟

ـ أبدا ... وتابعت قراءة مقال د. جميعي:

وقد أبلت هذه القوات في الحرب بلاء حسنًا، حيث اشـتركت في ثمانية وأربعين موقعة من الفترة الواقعة ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ و ١٢ مارس سنة ١٨٦٧، أظهرت خلالهـا مهـارة واضحة في القتال وثباتًا وشجاعة شهد لها الماريشال Fory قائد الجيش الفرنسي بقوله: " إن هؤلاء ليسوا من الجنود، بل هم من الأسود".

كدت أضرب كفًا بكف وأنا أقول لنفسي: إذن جد رودلفو كان هناك، أوثمانو كان مع الجنود السودانيين أو الأسـود كمـا رآهم فوري لم أتمكن من إكمال ما تبقى من سطور المقـال، إذ نادى حاجب المحكمة على رقم قضيتنا في الرول، وحكـم القاضي خلال عشرة دقائق في قضية ضرب أفضـى إلـى موت، وخسرناها بسبب عدم ثبوت الأدلة وضـعف المقـدم منها، وكسبها الخصم الذي كان جزارا ضرب موظفًـا فـي هيئة التأمين والمعاشات أثناء شراء الأخيـر اللحـم منـه، واكتشافه غش الجزار في الميزان.

عندما خرجنا من المحكمة قلت لزميلي الذي بـدت دهشـته لعدم مبالاتي بنتيجة الحكم في القضية والتي سنستأنف الحكم فيها بالضرورة:

ـ سيد والنبي عاوزة صفحة مـن جورنالـك ضـروري، محتاجة أكمل قراءتها، أرجوك.

رد بمزيد من الاندهاش:

ـ عاوزة صفحة الوفيات؟ ولا صفحة الإعلانات المبوبة؟

ـ لا وفيات ولا إعلانات، صفحة الرأي والمقالات التـي لا يقرأها أحد.

بدا لي لغز جد رودلفو قاب قوسين أو أدنى من الحل، وكنت حتى ذلك الوقت أظن أن خيوطه قد أخذت تتجمع في يـدي، وصرت متحمسة تحمسا لا حد لـه لقـراءة بقيـة الأوراق والوصول إلى عائلة رودلفو في مصر.

قررت القيام بإجازتي السنوية من مكتب المحامـاة، وكـان قراري مفاجئًا لصاحب المكتب ولزملائي إذ جاء توقيته قبل شهرين مما كنت قد اتفقت عليه بخصوص ذلك، وقلت لهـم في جمعية " الحق الإنساني: " إنني مضطرة للسفر مع عمتي إلى بلادنا، فبدت الدهشة في أعينهم إذ اكتشفوا أن لي بلادا.

درت على المكتبات أبحث عن كتب تاريخية تتنـاول حماـة المكسيك فلم أجد كتابا واحدا يتعلق بهذا الموضـوع، سـألت أساتذة تاريخ معروفين عن أية دراسات أو أبحاث قـام بهـا

باحثون تتناول هذا الأمر، أو بطولة الأورطة المصرية كمـا قال د. جميعي دون جدوى، قيل لي أن هناك كتابـات عـن موضوعات أخرى. وجدت أخيرا كتابـا كتبـه د. لينـوار تشامبرز رايت، ترجمته وعلقت عليه د. فاطمة علم الـدين عبد الواحد ووجدتني أتوقف عند فقرات فيه وأقرأ:

" وقد أفسد العلاقات الطبيعية الودية بين الولايـات المتحـدة الأمريكية ، ومصر خلال الحرب الأهلية الأمريكية حـادث غير عادي، وإن كان عديم الأهمية، حـين أرسـلت مصـر قوات سودانية للخدمة مع القوات الفرنسية في المكسيك، ففي عام ١٨٦١ قامت فرنسا وأسبانيا وبريطانيا باستغلال فرصة تورط الولايات المتحدة في الحرب الأهلية الأمريكية، وقاموا باحتلال فيراكروز تحت زعم حماية استثماراتهم المالية، وفي أبريل ١٨٦٣ انسحبت إنجلترا وأسـبانيا تـاركتين نـابليون الثالث يحارب بمفرده.

وفي ٧ يناير ١٨٦٣ عرف في الإسكندرية أن ما يقرب مـن خمسمائة سوداني قد حملوا على سفينة نقل فرنسية للخدمـة مع قوات نابليون الثالث في المكسيك، ولم يذكر الراسل إلـى

الإدارة الأمريكية في رسالته عن المقابل ـ إذا كـان هنـاك مقابل ـ الذي حصل عليه الوالي المصري ".

" وقد عرف في أغسطس سنة ١٨٦٥ أن هناك حوالي ٩٠٠ سوداني آخرين على استعداد للإبحار إلى المكسيك وجـرت هذه العملية بصفة علنية، إذ أبلغ وكيل وقنصل عام الولايات المتحدة في الإسكندرية بها مقدما، وكانت حجـة الحكومـة المصرية أن هذه القوات لا تتعدى كونها اسـتبدالاً للقـوات الموجودة فعلاً في المكسيك ولذلك فهي تعتبـر جـزءا مـن الاتفاق الأصلي مع الفرنسيين، كما وافق الباب العالي علـى ذلك الاتفاق ".

" وقد أتاحت النهاية الناجحـة للحـرب الأهليـة الأمريكيـة الفرصة لحكومة الولايات المتحدة لتوجيه عنايتها الكاملة إلى المسألة المكسيكية، لقد كان استخدام السودانيين في المكسيك ـ طبعا ـ أحد العناصر في المشكلة الكبرى التي تهدف إلى إجلاء القوات الأجنبية وخاصة الفرنسية من هذا البلد، وكانت حجة الولايات المتحدة في اتهامها الرسمي أنها علمـت مـن مصادرها عن أسر أفراد القوة السودانية بالجملة بنفس طريقة جمع العبيد، وأنه قد تم بيعهم للخدمة في دولة لا يعرفونهـا

ومن البديهي أن الحكومة الأمريكية تعارض الرق مهما كان مظهره في دولة مجاورة ".

يا ا ... إذن هذا هو السبب في حـزن كوكـو ... كوكـو سودان كباشي، فها هي خيوط المأساة تكتمـل ، وهـا هـي الحقائق تتوضح شيئًا فشيئًا أمـامي، فالأورطـة المصـرية السودانية صاحبة البطولة كانت من العبيد، وكوكو سـودان اصطيد صيدا، وانتزع انتزاعا من وطنه في جبـال النوبـة، أجمل قطعة على وجه البسيطة، وأكثرها عذرية وبراءة، كي يقذف به في لهيب حرب لا ناقة له فيها ولا جمل كما يقال.

كنت قد تعرفت على كوكو سودان كباشي، قبل أيام قليلة من قراءتي لكتاب تشامبرز رايت، وتأمل سـطوره الفاضـحة، وذلك من خلال أوراق الشيخ عثمان حفني المجهولة والـذي أفرد فيها صفحات مطولة للحديث عن كوكو وعن وبـلاده، نسجت منها عندما نمت بعد قراءتها حلما جميلاً لهذا العـالم الغريب، تخالطت فيه كلمات الشيخ عثمان مع مشاهد أرشيفية ترسب في عقلي الباطن من أفلام طرزان القديمة ورحـلات إلى قلب قارة الماس والذهب وينابيع ماء ما هي إلا دمـوع سماوية لا تكف عن الانهمار، كان كوكو يبدو لـي خـلال

الحلم، شابا يافعا يخطو وهو شبه عار، بقده الخيزراني الرشيق فوق حبل طويل وممتد معلق في الأعالي، سمعت من يسميه في الحلم بخط الاستواء وكان وراءه رجال بيض يعدون لاصطياده، وكان كوكو كلما خطا خطوة محاذرا فوق الحبل المغطى بكامله بعصافير ملونة بديعة، كانت العصافير تفسح مكانًا لخطواته، بينما أسود ونمور وظباء وزرافات وحيوانات وطيور أخرى غريبة تزأر وتصيح وتغرد تشجيعا له، وكأنه لاعب إكروبات في سيرك عجيب، وعندما نجح رجل أبيض في اصطياده أخيرا، صرخ قطيع كامل من الفيلة صراخًا حادا عنيفًا، وهنا أفقت مذعورة وأنا أستشعر جفافًا في حلقي وغصة تكاد أن تحجز الهواء عن رئتي، فجريت إلى المطبخ لأتجرع جرعة من ماء بارد، تطفئ ظمئي وتعيد الطمأنينة إلى روحي.

عدت إلى السرير مرة أخرى، وبقيت فترة مفتوحة العينين أبحلق في السقف، بينما أحاول في يقظتي استرجاع مشاهد الحلم مرة أخرى، كان قلقًا هائلاً يساورني ورغبة لا تقاوم في أن أذهب إلى حيث كان كوكو سودان ذات يوم، بين الفيلة والحيوانات والطيور، نظرت في الساعة الملتفة حول

معصمي، كانت قد تجاوزت الثالثة بعـد منتصـف الليـل، نهضت من السرير وأضأت المصباح الموضوع على مكتبي بالغرفة ورحت أقرأ مرة أخرى ما سطره الشيخ عثمان عـن كوكو سودان وأسترجع ما قاله وأصله بما كتبه د. تشـامبرز رايت عن حملة المكسيك.

كانت صفحات كثيرة قد طارت بفعل سحر جـدة رودلفـو، ولكن الصفحة ٤٧ ويليها بعض الصفحات، كانـت مسـتقرة الآن أمام عيني حيث كتب عثمان حفني:

" وكنت مذ تخالطت مع أفـراد الأورطـة، وبـدأت أؤمهم للصلاة كما كان مقررا لي كشيخ مرافق ، قد لاحظت شابا يافعا يبقى طوال الوقت حزينًا، ساهم الطرف ، يطيـل النظر إلى البحر والماء، وكان يبدو على الرغم من جسـده الفارع وقوامه السمهري، كالمرضى المعلولين بعلـة غيـر ظاهرة، ثم إنني بدأت التقرب منه والتودد إليه، وعرفـت أن اسمه كوكو سودان كباشي، ولم يكن يعرف من العربيـة إلا قليلاً، على العكس من زميله النفر بخيت بدروم الذي ترقـى بعد واقعة القطار إلى رتبة أونباشي، وبخيـت مثـل كوكـو ومعظم جنود الأورطة، كان قد جلب من منطقة قرب جنوب

غرب السودان تسمى جبال النوبة، لكنه تعلم العربية؛ لأنه كان في الأورطة منذ عدة سنوات، وقبل ارتحالنا إلى مكسيكيا، وكان ينقل الكلام بيني وبين كوكو بلغة الطرفين عندما يتعذر التفاهم بيننا في أوقات كثيرة ومنه عرفت أن كوكو بلغة جبال النوبة تعني الأخ الأكبر، كما أن كاكا تعني الأم، وفافا هي الأب، وكوكو كان أكبر إخوته فعلاً، وقد صيد عبدا مغصوبا منذ عام واحد قبل ارتحاله إلى مكسيكيا، وتم ضمه للأورطة السودانية كان عمره وقتذاك لا يزيد على عشرين سنة، ولقد كان حزينًا لابتعاده عن كاكا وفافا وبقية عشيرته وإخوانه، ورغم حزنه البادي إلا أنه كان نشيطًا مطيعا منفذًا لكل ما يطلب منه من أوامر ومهمات، وكانت له هيئة حسنة وأسنان قوية بيضاء ما رأيت أجمل منها وكان صدره عريضا لا يقل عن ثلاثة أشبار بأية حال من الأحوال، وربما أكثر، وكان كوكو عندما تأخذه دوامات الحزن والألم خلال وحشة الليل ويسرح ببصره بعيدا وهو على سطح الناقلة، يشرع في صفير حاد ممتد كصفير طير من طيور الغابات، ويظل على تلك الحال وقتًا وكأنه مذهول أو أصابه مس من شيطان رجيم، ثم عقب ذلك يشرع في

غناء حزين مؤثر بلغة أهل جلدته، وكنت أقوم إليه فأربت على كتفه مواسيا مؤاسيا، وشيئًا فشيئًا علّمته فروض الصلاة، لكني أدركت أنه ليس من المتدينين ديانة حسنة بين أفراد الأورطة، وعندما دخلت النقالة لاسين المحيط الكبير والذي كان يطلق عليه قديما بحر الظلمات، ظل كوكو خائفًا مذعورا زائغ النظرات وكانت عربيته تثير ضحكي أحيانًا فهو يقول تزعة بدلاً من تسعة، وفي إحدى المرات أخذت أحادثه وكان معنا بخيت بدروم، ففهمت منه أن لكوكو أختًا توءم كان يحبها كثيرا، وكان لا يفارقها ولا تفارقه، لكنها سرقت هي الأخرى وبيعت بأرض لا يعرف طريقًا لها.

ثم إنه كان لكوكو رفيق صنو اسمه نينانده ضمن أفراد الأورطة على النقالة لاسين، وهو مثله من قبيلة تسمى الشير، وقد أخبرني بخيت أن الشير في مجملهم شعب وسيم الطلعة، طويل القامة، بهم لطف وبشاشة وكرم، وهم أهل رقص وغناء، وتجتمع نساؤهم مع رجالهم وأطفالهم لهذه الغاية في حفلات تحت ظلال الأشجار، ويعزف أولادهم المزمار ويرقص الجميع متمايلين ذات الشمال وذات اليمين مع هز الأرداف والصدور، لذلك فإن كوكو ونينانده كانا

ينتهزان كل فرصة للرقص وكان سوار الذهب ريس ومعلـم المطبخ يشاركهم في ذلك حينًا وهو يضحك، وكنت أعجـب منه وهو يصفهم بالعبيد وهو أسود مثلهم، وإن كان لونه أفتح منهم بعض الشيء، وفي ملامحه نعومة، فلما سألته قال لـي أنه من أهل الشمال الذين تخالطت دماؤهم مع العـرب، وأن قبائله تعتبر أهل الجنوب أدنى وأقل شأنًا فضربت كفًا بكـف وأنا أتعجب من ذلك.

وقد لاحظت أن كوكو يحب الإمساك بمسبحتي كثيرا وهـي مسبحة صنعت أحجارها الصغير من عنبر الحوت الجليـل، وكان قد قدمها لي ابن عمتي الحاج خليـل عنـد خروجـي وارتحالي من الحفن كتذكرة تدوم، ودليل محبـة لا تبـددها الأيام، وذات مرة أخذها مني كوكو ووضعها في عنقه كقلادة وراح يرقص بها، وعند الليل فاجأني إذ رغب في مقايضتي بها، وأظهر لي جلد نمر كامل لا عيب فيه، كان قد جلبه معه ضمن حاجياته وخبأه واقترح أن يكـون سـجادة لصـلاتي وركوعي.

وقد عرفت من كوكو أثناء رحلتنا أن بلاده من أجل بلاد الأرض قاطبة وهم يزرعون السمسم والتبغ واللوبيا إلى جانب البطيخ والقرع، وأن أشجارهم شامخة للغاية وتسكنها أنواع شتى من الأطيار مثل غاباتهم المعمورة بكل أنواع الوحوش والدبابات.

" وقد تعذب العديد من أفراد الأورطة، عذابات من نوع آخر لا حصر لها، غير مفارقة الأوطان والنأي عن الأهل والخلان، فالطعام كان في أغلب الأحيان رديئًا وطعمه غير مستحب، واليخنة التي كانت تقدم لنا كل يوم، لم تكن بها لذاذة وعلى المرء أن يزدردها ازدراد البهيمة لعلفها، ولولا بعض الفواكه التي كانت تقدم لنا أو يبتاعها المرء من السوق، لكان مات ونفق جوعا، ناهيك عن الماء وقلّته وعدم استساغة طعمه، وكانت وخامة الأراضي الحارة التي نعسكر بها وفساد مناخها، من أكبر أسباب المضايقة للجميع، وعلى ذلك ورغم متانة بنية جنود الأورطة وكمال أجسامهم، وقوة تحملهم، لم يكن يوجد من كل بلوك من بلوكات الأورطة أقل من ثلاثين أو أربعين مريضا دوما، النسبة الأكبر منهم تكون بالمستشفيات والبقية في الثكنات، حيث يذهب البعض إلى

المستشفى لحاجتهم الماسة لعلاج سـريع أو ليبقـوا تحـت الملاحظة، ويحصلوا على العلاج، وكانت معظم الإصـابات في هيئة إسهالات وحميات، ولـدغات حشـرات سـامة أو حيات، أو آفات أخرى عجيبة لم أر مثلها من قبل قط ".

" وفي ٢١ يونيه سنة ١٨٦٣ إفرنجي، أقيم فـي فيراكـروز قداس في أكبر كنائسها، حضـره القائـد العـام الفرنسـي، وكبارات المدينة وأعيانها ومثلـت فيـه جميـع السـلطات العسكرية وعهد إلى الأورطة السودانية المصرية مهمة القيام بالتشريفات، وقد حضرت إلى هذه الكنيسة الكبيرة ضمن من حضروا، فوجدت أنها شاهقة البنيان، مليئة بالزخارف العديدة المصنوعة من الجص، كما مثل بداخلها تماثيل من الرخـام، لأنبياء ورسل المسيحية، وكانت جدران الكنيسة من الـداخل ملونة الزخارف بماء الذهب، وأوانيها من الفضة الخالصـة، أما المسيح عليه السلام، فقد صوروه وهو على الصليب، في هيئة ضخمة صبت من الذهب الخالص، كما كانـت هنـاك تصاوير على الجدران رسمت لأمه السيدة مـريم، وكـذلك لقصص الأنبياء، والسيد بين حوارييـه، ثـم جـاء القسـس والكهنة في ملابس طويلة حمراء كالعباءات وهـم يضـعون

على رؤوسهم قبعات حمراء أيضا وظلوا زمنًا طويلاً يرتلون ويقومون بأدعية قيل لي أنها باللاطينية وأن عامة الناس هنا لا يفهمونها، وكانت النساء تجلس في موضـع مخصـوص، غير ملازمات للرجال كما هي العادة في أفراحهم وتجمعاتهم وقد لاحظت أنهن يضعن على رؤوسهن طرحا من النسـيج الرقيق المشغول بأنساق بديعة لافتة، والحق أن النساء هنـا على الأغلب هن على درجة من الحسن وتتراوح ألوانهن بين البياض الشاهق، والسمار الداكن، ولهن عيون مليحة آسـرة النظرات ".

وقد تعجبت من كل تلك الأبهة، وكل ذلك الإسـراف في بيت للعبادة، فلعل الخالق ما يريد من خلقـه إلا الطاعـة والعمل بما أمر به، وهو غني عن الذهب والفضة، وكل تلك الثياب الموشاة القشيب الذي لا معنى أو ضرورة لـه، وقـد قارنت ذلك بزي القساوسة والرهبان في بر مصـر، الـذين يميلون إلى التقشف ولا يخلعون السواد، وهم فقراء إلـى ا في كل مسلك من مسلكهم، ثـم إن الفرقـة بعـد أن انتهـى القداس، تم استعراضها في أكبر ميـادين المدينـة، وكانـت كعادتها غاية في الانضباط وحسن الملبس، وخصوصا بعـد

أن ميزت بشارات صفراء توضع على الأذرع بنـاء علـى تعليمات المارشال فوريه، وكان قد كافأها قبل ذلك فـي ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٦٣، بأن تؤلف منها كتيبة جنود برنجي نفر، فأُلفت من الأورطة كتيبة بلغ عددها ربع عدد الأورطة، كما أمر فوريه فمنح كل فرد من أفرادها ٦٥ سـنتيمترا يوميـا، وأن يميز من فيها كذلك بتلك الشارات الصفراء، وكان فوريه طالما أشاد بالأورطة المصرية

وبطولاتها وقد علمت من الصاغ ألماس أفندي أن هذا القائـد قد أرسل إلى القائد العام للجيوش الفرنسية في مكسيكيا برقية أشاد فيها ببسالة الجنود المصريين السودانيين وقال له أنهم لم يبالوا بالنيران التي كانت تنصب عليهم من كل جانب أثنـاء القتال، وقد نجحوا في الانتصار على المكسيكيين وردوهـم على أعقابهم على رغم أن هؤلاء الآخرين كـانوا يزيـدون عليهم في العدد تسع مرات ".

وقد قارنت ذلك الاحتفال الكبير الذي شـهدته فـي الكنيسـة والذي أقيم بسبب بعض المناسبات الوطنية، وقد قلب البلـدة رأسا على عقب، ببعض الاحتفالات التي شهدت جانبا منهـا في مصر المحروسة كعيد وفاء النيل وتذكار يـوم الجلـوس

السنوي والمولد النبوي، فإن القاهرة كانـت تصـير قائمـة قاعدة، تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفـاخرة، والرايات والأشاير والطبول والزمور، وجماعات أصـحاب الرتب والنياشين بملابسـهم الذهبيـة السـاطعة ونياشـينهم المتلألئة يسيرون زرافات ووحدانًا، بينما تصدح الموسـيقى بأنغامها الشجية في كل حي من الأحياء، وتدوي المدافع دويا متعاقبا وتجري الاستعراضات الجميلة، وفي عيـد الجلـوس كان عشرة آلاف درويش يمرون بأشايرهم ورايـاتهم أمـام شرفة القصر بعابدين بضجة وصخب غايـة فـي العجـب، وكانت الصواريخ والألعاب النارية تشعل في الليـل علـى أبدع الأشكال وأتم الأنواع.

في مساء اليوم التالي لقراءتي أوراق عثمان حفني عن كوكو سودان، عدت إلى البيت بعد يوم حافل... ذهبت إلى المحكمة في الصباح مع عدد من زملائي للترافع في قضـية تعـذيب شاب بأحد أقسام البوليس كان متهما في قضية سرقة بالإكراه وثبت أنه مات بسبب التعذيب، ثم شاركت في ندوة تتنـاول حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أراضيهم، ومـا إن

ولجت من باب الشقة حتى صـاحت عمتـي مـن المطـبخ مستنكرة:

ـ يعني لازم تتسببي في إحراجي مع الناس؟. سـألتك عـن موضوع سواق أخت سميحة فوزي وأنت ضاربة طناش ولا على بالك، يعني يحصل شيء لو رفعت سـماعة التليفـون وسألت عنها وعن أحوالها واستفسرت منها عن الموضوع؟

ـ طيب. طيب. عاوزة آكل الأول، لأني ميتة من الجوع.

ـ أسخن لك بامية ومكرونة، عاملة بامية بشاير تجنن.

ـ لأ. عاوزه شاي وجبنة رومي.

بعد العشاء كلمت أخت سميحة فـوزي، قالـت أن السـواق السوداني الشغال معها لاجئ سياسي عند الأمم المتحدة، وأن الأمم المتحدة نازلة ضغط عليه حتى يهاجر لأمريكـا وهـو رافض.

دهشت للفكرة وتساءلت:

ـ يا سلام. هل الأمم المتحدة عاوزة تهجره لأمريكا فعلاً؟

ـ آه.

ـ غريبة ويا ترى لسبب معين.

ـ ولا أعرف وحياتك. أصل المشـكلة أن الأمـم المتحـدة أعطته جواز سفر وأوراق شخصية وهو من غيرهـا يبقـى وضعه غير قانوني في مصر. وبيني وبينك هو نافع لي جدا، ويدي ورجلي في الرواح والمجيء، أصل السواقة في مصر صعبة ومخيفة، ولا ضابط أو رابط لها. تصـوري عشـت عشرين سنة في الخليج وكنت أسوق كل يـوم بالسـاعات، وأطير بالعربية في كل مكان. لكن هنا في مصر مستحيل أن أفكر حتى في مجرد تدوير العربة مرة واحدة. لـو عملتهـا يركبني مائة عفريت. بعد ذلك بعدة أيام جائني بالمكتب شاب أسمر خجول، وقدم نفسه لي: علاء السنّاري من طرف مدام سميحة فوزي، تذكرت الموضوع على الفور وطلبـت منـه الجلوس وطلبت له عصير ليمون من نفيسة فراشة المكتـب، قال علاء وصدقٌ كبير يطل من عينيه ويملأ نبراته أنه سجن في السودان عدة سنوات، ثم هرب بعد ذلك إلى مصر عـن طريق العلاقات القبلية وأنه كان ينتمي إلى الحزب الشيوعي السوداني، ثم إنه طلب اللجوء السياسي من الأمـم المتحـدة، وبات يحصل على وثيقة إثبات شخصية من هـذه المنظمـة

الدولية وكذلك مرتب لا يكفيه لذلك فهو يعمل سائقًا خصوصيا لبعض الوقت و...

ـ طيب وما المطلوب مني يا أخ علاء؟

ـ لا أعرف ماذا أفعل، لكني لا أريد أن أتغرب بعيدا عن أهلي وناسي. أنا في مصر قريب من أمي وإخوتي، وهم يأتون من السودان بين فترة وأخرى لزيارتي، والزول يعيش على أمل أن تنتهي المشاكل السياسية ويعود ذات يوم على بلده وأهله.

قلت وأنا أستمع إلى قصته بنبرات لا تخلو من تعجب:

ـ لكن يا علاء، ناس ياما، أمنيتها الهجرة إلى أمريكا والعيش فيها، ملايين الناس حلمهم الحياة في الجنة الأمريكية بسبب الرفاهية والغنى والثروة.

نظر علاء إلي نظرة طويلة متشككة، ثم حاد عني بنظراته، وراح يثبتها على إعلان ضخم لنوع من مكيفات الهواء الأمريكية، يظهر على حائط البناية المقابلة لنا من شباك الغرفة، قال:

ـ لا. أنا لا أريد الذهاب إلى أمريكا وإعادة توطيني كما يقولون، واحد زول زميل لي، لاجئ سياسي من الجنوب،

وهو تحت حماية الأمم المتحدة أيضا، تم ترحيله وتوطينه في أمريكا، ولكنهم بعد فترة قصيرة أرسلوه ليحارب في حرب الخليج والمسكين قتل عراقيين ومات، تصوري يا أستاذة؟

هتفت رغما عني:

ـ آه. عملوه كوكو سودان كباشي يعني!

ـ شنو؟

نطق بالسودانية وهو ينظر إلي مندهشًا وقد أذهله الاسم.

قلت:

ـ آسفة كنت أكلم نفسي.

ثم إنه انصرف، بعد أن وعدته صادقة بالسعي لإيجـاد حـل لمشكلته الغريبة بطريقة أو بأخرى.

نزلت بعد انتهاء مقابلتي مع علاء السناري، وانصرافي مـن العمل بالمكتب إلى شوارع وسط البلد لشراء هديـة مناسـبة لزميلتي وصديقتي نهال الحسيني والتي تعمل معي فـي ذات المكتب. لقد زاملتني نهال طوال سنوات خمس منـذ بدايـة اشتغالي بالمحاماة، وأخذت علاقتي بها تتوطد شـيئًا فشـيئًا، واكتشفت أنها نموذج خاص جدا من النسـاء مقارنـة بمـن صادفتهن في حياتي، فهي تزوجت ذات يوم من زميل لهـا

بالجامعة، وأنجبت منه ولدين بعد قصة حب طويلة مؤثرة، إذ كان زوجها مسيحيا وأسلم، لكن أهله رفضوا زواجه منهـا، مثلما رفض أهلها زواجها منه لاختلاف الديانة، وعلى الرغم من أنه أسلم وكان سعيدا معها، إلا أنه وعلى مـا يبـدو لـم يحتمل قطيعة أهله بعد إسلامه فأدمن المخدرات وانتهى بـه الأمر إلى أن يموت في مصحة لعلاج الإدمـان وهـو لـم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، إضافة إلـى الولـدين الصغيرين، فقد ترك الزوج المسكين لنهال تركة لا بأس بها من الديون ولوعات هائلة في القلب وعجزا دائما عن التعامل مع أي رجل آخر يحل محله، ناهيك عن قطيعة مستديمة من أهله وأهلها.

عموما، اشتريت قرطًا فضيا علـى هيئـة مفتـاح الحيـاة الفرعوني يليق بوجهها الجميل وكان سعره مناسـبا لـدخلي المتواضع، خمسين جنيها فقط لا غير.

قلت وأنا أقدمه لها:

ـ فكري في الحياة وحاولي أن تعيشيها.

عندما عدت إلى البيت بعد أن دعوت نهال للجلوس قليلاً في جروبي واحتساء مشروب احتفالاً بعيـد ميلادهـا الحـادي

والأربعين، شرعت في استكمال قراءة أوراق عثمان حفنـي بعد أن قيلت قليلاً، وجدت فضة أخرى تنتظرني، كانت فـي صفحة ٥٨ " وفي هذه البلدة تفرجت على إخـراج الفضـة، ورأيت كيف يطحنون الحجارة مثل التراب، ويجعلونها فـي الماء كالطين، وبعد ذلك يمزجون فيه الزيبق وطول النهـار يحركونه مقدار عشرة أيام أو اثنى عشر يوما والزيبق يجمع الفضة ويلتصق بها، ومن بعد الأيام المذكورة يغسلونه فـي حوض مجلد بجلود البقر والماء يأخذ التراب ويوديه والفضة ترسخ ".

سرحت ببصري قليلاً، وتداعت إلى مخيلتي صـورة دولاب الفضية بغرفة السفرة في بيـت عمتـي زمـان... أكـواب وفناجين زجاجية كثيرة داخل أرديتهـا الفضـية المنقوشـة والمحفورة بزخارف وتوريقات نباتية جميلة، ما كانت تخرج من أماكنها على أرفف الدولاب الخشبي الرائع المصـنوعة بدقة وإتقان، إلا في مناسبات عزيزة، ذات طابع استعراضي، عندما كان يزور عمتي بعض " الناس المهمين " كما تقول أو بعض الرجال الذين كانت الفضة وأوانيها الساحرة، وسـيلة من وسائل عمتي لإغوائهم على ما أظن.

بدأ عقلي تداعياته تحت عنوان فضة فرحت أغني بصـوت خافت أغنية طالما رددتها وأنا صغيرة:

بس بس نو يا بس بس نو

دلوعة وعمال تحلو

قطط الناس جلاجلها حديد

وانت ف لبس الفضة وحيد

يا أبو عين سودا يا حارس الأودة

يا بس بس نو

وأغنية أخرى طالما كانت تغنيها لي عمتي وأنا صغيرة:

ساعدني وأساعدك

واكسر سواعدك

سواعدك.. لولي.. لولي..

كما الشعر المحلولي

حليته حلة.. حلة..

كما شمروخ الفضة.

أما آخر التداعيات، فكانت من كتاب قرأته دونما اهتمام، كان أهداني إياه ذات مرة صديق يعمل في دار نشر خاصة، لاح

في أفق وقتها كمشروع علاقة عاطفية سرعان ما خبـت، أو انتهت قبل أن تبدأ تقريبا.

رحت أقلب في مكتبتي حتى عثرت على الكتاب، كان عـن أمريكا اللاتينية وشعوبها، أخذت أتصفحه مستعيدة ما قرأتـه من قبل.

كان النظام الميتا آلة تسحق الهنود، وكان اسـتخدام الزئبـق لاستخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائي يسـمم بـنفس درجـة الغازات السامة في أحشاء الأرض أو أكثر، كان يسقط الشعر والأسنان ويبعث ارتجافات لا يمكن السيطرة عليها، وكـان من يسممهم الزئبق يتمددون في الشوارع طالبين الإحسـان، كانت ستة آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل فـي الليـل علـى منحدرات التل الغني وعلى ضوئها يجري تشـغيل الفضـة بالاستفادة بالريح التي يبعثها (سان أوغسطين المجيد) مـن السماء وبسبب دخان الأفران لم يعد ثمة زرع ولا بذار فـي مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوس ولـم تكـن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال ".

أما عثمان حفني، فقد كتب عن هنود الفضة ص ٦٣ ما يلي:

" وقبل أن تملك السبنيولية هذه البلاد ما كان أحد يعرف الإله الحقيقي، وكان البعض يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وما كان لهم أحرف، ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة، لكن لما يريدون أن يقدموا عرض حال إلى ملكهم، كانوا يصـورون تصاوير في منديل على حسب شكاواهم، وكان في زمان فتح هذه البلاد ملكان أخوان، الواحد يسمى وداوليا، والآخر يسمى وسكارانيكا، وكان بينهما الحرب وكانت آلة سلاحهم وعدتهم القوس والسهام ورماح ومقاليع لقذف الحجارة، وما كان لهم مواش، أعني مثل أفراس وبغال وحمير ولا ثيران ولا بقـر ولا غنم ولا دجاج سوى جنس حيوان شـبه الجمـل بقـدر الحمار وحدبته في صدره يحملون عليه ويأكلون لحمه، لكنه لا يسافر بعيدا، وكل يوم ما لا يزيد عن أربعـة فراسـخ لا غير، فلما يتعب ينام ويزبد ويتفل علـى أصـحابه وهـؤلاء الهنود ما كان يموت أحد منهم، إلا وكانوا يصنعون له قبـرا عاليا علو ذراعين وطول ثلاثة أذرع، وكانوا يضعون فـي قبره آلة صنعته مع شربة من خمر الذرة.

بدأت أنتبه إلى متغيرات أخذت تعتريني منذ بدايـة قراءتـي لأوراق عثمان حفني الغريبة، في البداية أبدت عمتي ملاحظة

أو اثنتين لم أعرهما اهتمامـا واعتبرتهمـا ضـمن سـياق ملاحظاتها الدائمة لي، فما المشكلة في أن تقول " صار لـك أسبوع وأنت خارجة داخلة في البنطلون البني إياه والبلـوزة البيج المكلحة، كأنك شغالة في معسكر جيش "، أو أن تقول " حطي لك حبة بودرة في خدودك وأنت لونك صـار أصـفر كالكركم وكأنك مريضة ".

لكن بمرور الوقت، لاحظت أنني بت متوترة معظم الوقـت، لا مبالية بالأشياء حولي، ولا أبذل الجهد الذي كنـت أبذلـه عادة في عملي بالمحاماة، أو أتحمس له كثيرا مثلمـا كنـت دوما، ولاحظت أن شهيتي أخذت تضعف لتناول الطعام، مع نوبات اكتئاب تستمر عدة ساعات خلال اليوم، أعود بعـدها لمزاجي المعتاد، ولاحظت أن ذلك يحدث عادة بعـد قـراءة الأوراق، وقد استشعرت أنها تجرني إلى أمور أعترف أنهـا لم تكن محط اهتمامي من قبل ومنها مسألة الهنود الحمر.

هل السبب في كل ذلك هو أنني لم أتوصل إلى خيط واضـح يدلني على شخصية عثمان حفني ومن يكون، اللهم إلا اسـم القرية التي جاء منها؟

فكرت في ضرورة تسليم هذه الأوراق لشخص ما، شخص قد يهمه أمرها، وأستريح أنا منها، باحث أو مؤرخ متخصص، ولكن ماذا عن رودلفو؟، لقد وعدته بأن أبذل جهدا للبحث عن عائلته الضائعة والتي لا يستطيع إليها سبيلاً... نعم لقد وعدته أن أبذل جهدي لفك طلاسم الأوراق والوصول إلى أصل وفصل عثمانو... لكن لماذا، لماذا هذا الوعد؟ ولماذا كل هذا الحماس من ناحيتي؟

لقد دفعني التفكير في رودلفو إلى التفكير في نفسي أيضا، إن الفضول والرغبة في معرفة سر عثمان حفني وحكايته لا يمكن أن يكونا الدافع الحقيقي وراء الاهتمام بهذه الأوراق.. هل رودلفو نفسه هو من اهتم به؟ لا أخفي أنني أعجبت بشكله وانجذبت إليه نوعا ما، ولكن هل يمكن أن يكون اهتمامي بحكايته سببه أنني أبحث فيه عن ضالتي المنشودة؟. ولكن ما ضالتي المنشودة؟ أنا لا أعرف، لا أعرف على وجه اليقين ماذا أريد من هذا الرجل الذي أدخل في علاقة معه، إن كل ما أدركه حقًا هو أنني أريد رجلاً يملأ الفراغ الهائل الذي تركه أبي بعد وفاته، رجلاً آخر يمنحني طمأنينة مثلما كان يفعل أبي، فأنا أشعر أنني بلا معنى، وأنني بالونة

ضخمة ملونة تسير على قدمين وستنفجر عند أول شـكة أو ملامسة لها، ولكن هل رودلفو هو الرجل الذي سوف يمـلأ هذا الفراغ، ويعوضني عن كل الرجـال الآخـرين الـذين حاولت ودون جدوى أن أجد فيهم الملامـح الجميلـة لـذلك الطاغية الناجح دوما في امتلاكي منذ طفولتي وطوال حياتي وحتى بعد مماته، وأعطى لي صورة أبدية وتعريفًا للرجولـة عندي؟. عموما لا أظن أن رودلفو لديه ما يحل محل أبـي، وأنا لست واقعة في غرامه، ولكني متعاطفة معه وهناك أمر غامض يقربني إليه... ربما.

لقد عدت للتفكير مرة أخرى في مدى جدية رودلفو للوصول إلى أصول عائلته في مصر... طيب إذا كان هو جادا إلـى هذا الحد، فلماذا سكت كل هذه السنين ولماذا انتظر سـنوات قبل أن يحمل أوراقه ويقدمها إلى أحد؟ عموما داخلني شعور بأنني غبية ولا أخلو من حماقة، فثمة أسئلة كـان يجـب أن تتبادر إلى ذهني منذ أن رأيته وتحادثنا في الطائرة، أليس من المعقول أن رودلفو يعمل لحساب جهة ما، وموضوع العائلة المفقود أثرها إنما هو سبب وعلة وغطاء، ومبرر لذلك؟!

تدافعت إلى رأسي صور من أفلام جاسوسية شتى، سـبق أن شاهدتها في السينما والتليفزيون... شعرت بـالخوف قلـيلاً، فربما وقعت في فخ خطير، أو بت أداة يسـتخدمها شـخص غامض ضالع في مؤامرة كبرى لا أدري عنها شيئًا. رحـت أحك رأسي بأناملي مستثيرة خلاياها الدهنية مما ترك لمعانًا على أظافري، كنت أجلس على سريري متربعـة، منفوشـة الشعر، أفكر بعصبية، وقبل أن أرد على عمتي الداخلة مـن البلكونة بالغسيل الناشف الملموم، والتي صاحت بمجـرد أن رأتني: " مالك ناكشة شعرك وعاملة أمنا الغولة "، رن جرس التليفون ليجيئني صوت رودلفو:

ـ خالدة، أنا رودلفو... كيف أحوالك؟

ـ بخير... أهلاً... وأنت؟

ـ جيد... جيد... أريد أن أشكرك على كل شيء وعلى جولة القاهرة الجميلة، ولكن هل قرأت الأوراق؟

ـ بدأت أقرأها، وهي أوراق جدك عثمان حفني يا رودلفـو، يبدو أنها مذكرات أو شيء من هذا القبيل.. وبلـده اسـمها الحفن و...

ـ هفن.

- الحفن - شددت على الحروف - وهي تقع فـي جنـوب مصر وهي بلدة قديمة مشهورة بأن مارية القبطيـة كانـت منها.

- ماري. آه.

- لا، ليست السيدة مريم العذراء.... بل مارية زوجة النبي محمد.

- وهل عرفت شيئًا آخر؟

- حتى الآن، أنا في الحقيقة لم أتوصل لمعلومـات مفيـدة، ولكن عليك الانتظار والصبر، حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلها.

- خالدة.. اسمعي، تعرفت على صـديق مصـري هنـا، وحكيت له حكاية جدي والأوراق، وهو يقول أنـه يسـتطيع الوصول إلى عائلة جدي بطريقة سريعة.

- أية طريقة؟! تساءلت بدهشة.

- يقول أنه يعرف ساحرا ممتازا في بلدته بمصر وهو لابد أن يوصلني إلى عائلتي، ولكنه يحتاج إلى شيء يخص جدي، وأنا فكرت أن تعطيه بعض الأوراق التي عندك، وسأرسـل لك نقودا في البنك لهذا السبب، لأن من سيقوم بهذه المهمـة

والدته في مصر، فمن فضلك أعطيني رقم حسابك في البنك و...

ـ لم أتمالك نفسي، فقهقهت بصوت عالٍ في التليفـون ممـا جعله يرتبك على ما أظن لأنه تساءل:

ـ لماذا تضحكين؟. هل هناك خطأ ما؟!

ـ آسفة، لكن حكاية الساحر أضحكتني، لم أتصور أنك تفكر في السحرة!

ـ ولم لا؟. السحر علم، وهناك ظواهر مـا وراء الطبيعـة ترتبط به، لكن هذا موضوع يطول النقاش فيـه، سـأعطيك صديقي المصري وهو سيحدثك في هذا الموضوع.

تغير الصوت، وكذلك تغيرت الحروف والكلمات.

ـ أهلاً يا أبلة... معك أخوك عبـد السـميع الطيـب مـن البراجيل، وا يا أبله لو عندك قلم أعطيك تليفـون الحاجـة الوالدة وسعادتك تتصلي بها في البلد، وهي توصلك للشـيخ أبي المعالي، قولي لها الشيخ أبو المعالي وهي تعرف علـى طول وهو مكشوف عنه الحجاب ومجرب والحمد .

أخذني الفضول العارم فسألته:

ـ أنت مقيم في ألمانيا يا عبد السميع؟

ـ آي نعم يا أبلة من حوالي ثماني سنين مـع ابـن عمتـي وناس كثير من مصر وشغالين في بيع وتوزيع الجرايد.

أخذت منه رقم تليفون الحاجة الوالدة، ودونته فـي مفكـرة أضعها عادة بجانب التليفون احتياطيا لمثل هذه المناسبات، ثم قلت له:

ـ طيب... هات رودلفو.

وعندما أعادني إلى صوت رودلفو مرة أخـرى، قلـت لـه بحزم:

ـ اسمع يا رودلفو... لا تعطي أي إنسان نقودا ولا تتصرف بأي شكل من الأشكال حتى أنتهي من قراءة الأوراق كلهـا من فضلك وأقول لك عنها، ثم إنني ودعته ووضعت سماعة التليفون.

كثير من الناس الذين أعرفهم يعتقدون في السحر، وفي أمور مشابهة من هذا النوع، أناس جهلة لم يذهبوا إلى مدارس قط، وأناس متعلمون تعليما عاليا راقيا، عمتي على سبيل المثـال تذهب إلى عرافين يقـرءون الكـف ويفتحـون الكوتشـينة ويقرءون الفنجان وهي تعتقد فـي السـحر بشـدة وطالمـا ضبطتها وهي تأخذ إيشاربا من إيشارباتي، أو قميصـا مـن

قمصاني الداخلية، باعتبارهما من آثاري، مما يساعد السحرة على فك أعمال معمولة لي حالت دون ارتباطي بشخص مـا وزواجي حتى الآن.

لي زملاء مرموقون في مكتب المحامـاة، طالمـا وجـدتهم يتناقشون في هذه الموضوعات... نهال الحسيني نفسها، بكل عقلانيتها، وتفكيرها المنطقي تقرأ باب حظـك اليـوم فـي الجريدة، وبين الحين والحين تطلب فنجانًا من القهوة تشـربه ثم تدعو نفيسة مفتاح ساعية المكتب كي تقرأه لهـا، الوحيـد الذي لم أسمعه مرة يتناقش في مثل هذه الأمور، هو أبي، بل كثيرا ما سمعته يسخر من عمتي، عندما كانت تحكي له عن المفعول الناجع لعراف زارته أو عجوز فتحت لها الكوتشينة وقرأت طالعها، وها هو رودلفو الذي ظننت أنه مثقف ومتعلم كما يجب ويعيش منذ سنوات في ألمانيا، ناهيك عن همومـه السياسية، يلجأ إلى السحرة ليساعدوه في الوصول إلى أصل جده، إذن المسألة ليست علما وجهلاً، أو غربا وشرقًا فثمـة أمر أعمق من هذا، ربما الناس بداخلها تعتقـد أن واحـدا + واحد لا تساوي اثنين بالضرورة، فقد تكون ثلاثة أو أربعـة، لكنهم لا يصرحون بذلك، أو هم يرغبون في إثبـات أن ١ +

١ لا تساوي ٢، وبطرق أخرى غير رياضية، ولكن لماذا؟، هل لأنهم غير مقتنعين بالعلم؟ لا أدري! هل لأنهم يشـعرون بالنقص! أي أنهم ناقصون؟. ربما. ولكن لماذا هذا الشـعور بالنقص؟!. لا أدري!

هل رودلفو لا يؤمن بأن ١ + ١ = ٢، أم أن رودلفو يشـعر بأنه ناقص؟ هل هو ناقص لأنه لا يؤمن بالعلم أم هو ناقص لأنه لا يعرف شيئًا عن جده عثمان حفني؟.

مرة أخرى وجدتني أتساءل أسئلة أخرى من نوع: ما الحدود الفاصلة بين العلم والخرافة؟، أو بين الحقيقة والخيال، أو بين التاريخ والتأريخ، لقد كتب عثمان حفني في صفحة ٧٦:

" وكان بذلك الجبل نوع من الحشيش يشبه الخيزران الرفيع، فلما يمر عليه رجل أبيض عابر الطريق، يرتفع من الأرض مثل عود السهام، ويدقر الإنسان، ولا يشفى المصاب بهـذه الدقرة إلا الموت، لكنه لا يدقر الهنود والعبيد ولا يضـرهم، فلما رأيت هذا الحشيش وهو بعيد عشرة أذرع عن الـدرب، إلا وارتفع وامتد يريد أن يجيء ويلادغ يني أفندي خازنـدار المؤن لأن لونه أبيض وهو قبطي من شبرا النملـة، فخـرج العبد الأحمر الذي كان معنا وصاح عليه بلغة الحمر: دونـك

يا كلب، فلما صاح عليه وقع على الأرض وأنا شاهدت ذلك بعيني مثلما شاهدت في ذلك الجبل تلك الأغصـان السـاوية المعدلة من غير ورق، وفي كل غصن ثلاث جوزات مثـل القطن، فإذا انفتح جانب الجوزة، رأيت داخلها حمامة بيضاء بجناحيها ورجليها ومنقارها أحمر وعيونهـا سـود، فهـذه يسمونها زهرة الروح القدس ".

ناديت على عمتي:

ـ عمتي... تعرفي أي حد يشوف الأثر.

ـ آه... ياما، تعالي شوفي فيلم طاقية الإخفاء محطوط على القناة الثالثة.

خطر لي فجأة وقبل أن أواصل القراءة العودة إلـى كتـاب أمريكا اللاتينية مرة أخرى لأقرأه قبل مواصـلة مـا كتبـه عثمان حفني، فقد يساعدني ذلك على فهم ما هـو موجـود بالأوراق فعلاً.

بقيت أياما بعد مكالمة رودلفو أتساءل: كيف يعتقـد إنسان متعلم واع وسياسي كرودلفو في مسألة السحر، وكيف ينشغل العديد من الناس بهذا الأمر، وقد قرأت فـي إحـدى الصحف اليومية خبرا ذات مرة يشير إلـى أن المصـريين

أنفقوا في عام واحد ملايين الجنيهات على السحر والشعوذة والخرافة.

سألت نهال بينما كنا نزور زميلاً بالمستشفى أصيب في حادث عندما اصطدم الميكروباص الذي يقله من بلدته بني سويف إلى القاهرة بشاحنة ضخمة تحمل أطنانًا من عيدان القصب:

ـ هل تؤمنين بالسحر والعرافة؟. ألاحظ أن أناسا كثيرين حولي يؤمنون بذلك!

زفرت نهال بمرارة وقالت:

ـ أظن أننا جميعا كبشر في حاجة إلى بعض الأوهام، أوهام تدفعنا للحلم وتمنحنا القدرة على مواصلة الحياة، يظن البعض يا خالدة أن الموت هو اللغز، لكن صدقيني، الحياة هي اللغز الحقيقي، والسحر والشعوذة ليس أكثر من محاولات يائسة لفهم جانب من هذا اللغز.

عدت في المساء لأجلس في غرفتي محاولة فك أكبر لغز صادفته في حياتي، لغز عثمان حفني الذي وجدته قد كتب في الصفحة ٧٧:

" وفي هذه البلدة وبعض نواحيهـا يطلـع القرمـز، يلصق في بعض الأشجار ذات الورق السميك، فيلتصق مثل الدود في الورق ويصير مثل حب الجدري، ثـم فـي حـين بلوغه يستخرجونه ويضعونه في فرن حام، فييبس وينطفـئ وبعد ذلك ييبسونه ".

ومن أغرب الحوادث التي صادفنها في هذه البلـدة، أن بشير نحايل وهو نفر عادة، كان قد خرج أثناء الليل مـن خيمته بالبلوكات ليتنسم الهواء، ويبدو أنه جلس للاسـترخاء فغلبه النوم، فإذا بخفاش الليل الكبير المتواجد بهذه النـواحي يهجم عليه ويمص دمه ويستفرغه وهو يفصده ويتقيأ الـدم، وبعد فترة أفاق بشير نحايل من نومته في حالة من الغثيـان الكثير لكثرة الدم الذي خرج منه، وقد تسارع إليـه زمـلاؤه بالعلاج بعد أن تبينوا حالته وسقوه شراب الكينا المقوي وهو ما يستخدم هنا بكثرة لمواجهة الملاريا، وقد شرح لنا بعـض الهنود بعد أن عرفوا بما حدث، أن خفاش الليل عندما يهـبط على الإنسان وهو نائم فإنه يهوي له بجناحيه ليطيب له النوم ويستغرق فيه فيقوم هو بمص دمه بمنتهى السلامة والهـدوء ودون أن يشعر به ذلك المسكين ".

" وما حدث لبشير نحايل إنما هو قليل من حـوادث أخرى كثيرة جرت لأفراد الأورطة في مكسيكيا وبلداتها أثناء الحرب، بسبب وخامة الجو وكثرة المسـتنقعات والـوحلات والقرب من البحر المحيط، وكثرة الخلجان في تلك القرضـة فالنفر كوكو كورنك كاد أن يموت ذات مرة بسبب شيء من جنس الدبابات أصغر حجما من البرغوث ويسمى في اللسان الهندي بنكثوا، فقد هاجمت هذه الدبيبة كوكـو كورنـك ذات مرة وهو غافل عنها وجازت في جسده وسرحت ومكثت فيه أربعة أو خمسة أيام دون أن يشعر، لكنه لاحظ بعـد ذلـك تورمات صغيرة قدر الحمصة تظهر في مواضع مختلفة على جلده، فعندما فحصوه عرفها الأطباء الأسبان للتو، ثم إنهـم استدعوا أحد الهنود الذين على دراية بهذا الأمر وهو عجوز مجرب، فجاء بإبرة محماة وراح يستخرج هذه الدبيبـة مـن جسم كوكو كورنك بصنعة وصبر ودون أن يفقأها، ثم إنـه يحطها على النار فكانت تطق مثل فرقوعة، وظـل الهنـدي يبحث عنها في كل موضع من مواضع الورم حتـى أجهـز عليها جميعها وقد علمت أن هذه الدبيبة خطيرة جدا لأنها إذا

لم تخرج بصنعة وفقئت ميتة على لحم الإنسان فإنه يتـورم ويموت بسبب ما فيها من سم زعاف قاتل ".

رفعت رأسي عن الأوراق وقلت:

لن أذهب إلى سحرة وعرافين وكلام فارغ، رودلفـو يبدو كالغريق الذي يتعلق بقشة، إنه يبحث عن أيـة وسـيلة تقوده إلى أصوله المصرية ولكن إصراره هذا بـدا غريبـا بالنسبة لي أيضا، فما أهمية توصـله إلـى حقيقـة جـذوره المصرية الآن؟ ما أهمية أن يكون جده مصريا أو صينيا أو هنديا أحمر أو غير أحمر؟ وجدتني أتسـاءل بـدوري عـن أصولي، اكتشفت أنني ما فكرت يوما بهذا السؤال، ولا أظن أن أحدا ممن أعرفهم حولي فكر في هذا السؤال، أنا مصرية وخلاص، وأيا كانت أصولي، مصرية والحمد .

ولكن لماذا تثيرني قضية أصول رودلفو وتأخذ مني كل هذا الاهتمام؟ ولماذا أعود كل ليلة إلـى هـذه الأوراق، كأنني علي بابا يعود إلى مغارتـه السـحرية ذات الكنـوز المخفية لأقرأ فيها بنهم، علني أجد ما يشفي غليلي؟ ولكن ما هو غليلي هنا؟ هل أبحث حقًا عن عثمان حفني جد رودلفـو

أم أن هناك أمرا آخر بات يشدني ويفتح عيني على عالم آخر غريب لم أكن أراه من قبل؟.

لقد كنت في حالة دهشة بالغة، ومنذ أن أوغلت في قراءة الأوراق من فكرة جلب أناس من عمق الغابة الأفريقية وجعلهم جنود حرب يقاتلون عدوا لا يعرفونه ولا ضغينة في الأصل بينه وبينهم، جنود يقاتلون حتى الموت، ليس في السودان حتى لأجل حاكم الخرطوم، وليس في مصر لأجل عيون الخديو، وليس في استانبول لأجل الحفاظ على الخلافة وبابها العالي، ولكن وياللعجب في المكسيك لأجل فرنسا ولأجل إمبراطورها نابليون الثالث.

شعرت أن القصة على رغم مأساويتها، إنما هي نوع من المهزلة، خصوصا وأن هؤلاء كانوا عبيدا، أي بشرا تم صيدهم صيدا كالحيوانات الكاسرة من عمق الغابة الأفريقية السوداء، بالقوة وقسرا، ليتحولوا جبرا إلى جنود يحارب بهم هنا وهناك، عدت لقراءة الأوراق مرة أخرى: الصفحة ٧٨.

" وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من دخولنا مكسيكيا، وإقامتنا للحرب في فيراكروز، إذ إنه كانت تجيء نساء كثيرات من الهنديات والمولدات، بعضهن لم يتجاوز سن

الطفولة بعد، وذلك لخدمة الجنود الذين كانوا ينزلون بدورهم إلى بيوت الخنا المنتشرة في البلدة انتشـارا كبيـرا لقضـاء أوطارهم، ورغم أنني طالما نصحتهم ووعظتهم بالابتعاد عن ذلك، إلا أن علامات المرض الإفرنجي بدأت بالظهور علـى بعضهم، وفي الساعة الثامنة صباحا من يوم الثلاثاء الفائـت جاء أطباء فرنساوية للكشف على جنود الأورطة، فتعرضوا لأعضاء التناسل منهم والشرج وباطن الفم، وتم عزل اثنـين منهم عن باقي الأورطة لحين ترحيلهم حتى لا يتفشى الوباء بين الجميع ".

" ومن مساوئ الحرب بعيدا عن الأوطان، أنه فـي الوطن كان يسمح عادة لعائلات الجنـود بالانضـمام إلـيهم وتتبعهم من معسكر إلى آخر طالما ظلت الآليات مقيمة فيه، ومن الطرائف في ذلك، أنه لما تـم إيقـاف ذلـك لأسـباب صحية، فقد كانت بعض الزوجات تتنكر فـي زي الرجـال وتتبع زوجها أينما حل، وكذا كانت تفعل بعض من النسـاء الخواطئ المشتغلات بالمهنة ".

" ثم إنني فكرت في شراء جارية من سوق النخاسـة بالبلدة، فلما ذهبت إلى ذلك السوق، وجدت أن معظم العبيـد

من السود المجلوبين من بلدان السودان الأفريقي للعمل فـي الفلاحة وما شابه، إضافة إلى العديد من الهنديات المولدات، ومعظمهن في حالة رثة من البداوة والفقر، وقارنـت ذلـك بتجارة العبيد وأسواقها عندنا في مصر، فشتان بين الاثنـين، حيث إن لدينا بمصر جواري مجلوبين حسب العـرض مـن كافة الأصقاع الباردة والحارة، فلدينا البيض والصفر والحمر والسود، حيث الملاحة والحسن وجودة التربية ولطف السلوك والمعشر ".

" وبينما أنا عائد إلى بلوكات الآلاي وقد خاب أملـي في انتقاء جارية، أبتعاها بحر مالي وتكون تحـت تصـرفي وأمري، إذ أنفت نفسي من كل ما رأيت بالسوق، وإذا بامرأة واقفة تبيع بعضا من غلات الأرض الغريبة التـي مـا رأت عيني مثلها من قبل قط، فوقفت أتأمل ما لـديها، وأشـاريها، وكان ضمن ما تبيعه نبت أشبه بحبات الطماطم الصغيرة في استدارته ولونه، فتذوقت بعضا منه، وحرت، إذ كان لا حلوا ولا مرا، ولم أتبين إن كان فاكهة أم خضارا من خضراوات الأرض، وكانت عليه جبة كاسية من أوراق صفراء ذهبيـة اللون جافة، فلما اشتريت بعضا منه وتذوقته، طاب في فمي،

ووجدتني أرغب في صاحبته وقد أمعنت فيها النظر، فوجدتها مولدة مليحة بها من الهنديات الشعر المخملي الأسبل الغزير، والبشرة النحاسية الصقلية، أما عيناها فكانتا أميل إلى لـون الكهرمان المطبوخ، وكانت عجيبة الحسن، ذات أسنان بيضاء ناصعة كنثر اللؤلؤ المخبوء، وكان لها صدر ونحر ما رأيت أفتى منهما وأنهد، فهاجت مشاعري، وتملكتنـي الطبيعـة، وأخذت أطيل الوقوف عندها متعللاً بالشراء، ورحـت آخـذ وأعطي معها بكلام الإشارات ولغة التنهدات وتسبيل الجفون، ووضع الراحات على موضع القلب، وضم الشفاه، ثم إننـي صرت أمر عليها بين الحين والحين، كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى ..."

" يا خبر أسود " ... صحت وأنا أشهق شهقة طويلة عالية لفتت انتباه عمتي التي كانت تجلس قبالتي تلفـق كـم فستانها المفتوق، وجعلتها تضطرب فصاحت بدورها وهـي تدب على صدرها.

ـ بسم ا الرحمن الرحيم ... اتخضيت، خير.

ـ تصوري ... بقية الكلام طار. أهـم كـلام فـي الحكاية اختفى، يظهر أن جدة رودلفو عملت به تعويذة.

كانت عمتي تظن أن هذه الأوراق إنما هـي أوراق قضية هامة أشتغل عليها وأدرسها بجدية واهتمام، وأعطيهـا من وقتي وجهدي أكثر مما أعطي لأية قضية أخـرى فلمـا سمعتني أقول ما قلته قالت:

ـ صلي على النبي واتهدي وبالراحة دوري هنا ولا هناك يمكن تلاقي الورقة واقعـة منـك تحـت السـرير أو محطوطة على الكومودينو، أصلك قاعدة تشتغلي مرة علـى المكتب ومرة وأنت ممددة على السرير وامبارح شفتك داخلة بالورق ذاته التواليت ولما الورق يضيع تشهقي وتصـرخي ...عن نفسي أنا: كل ورقة وكل قصقوصـة وكـل حاجـة تخصك ألاقيها واقعة، أرفعها وأحطها في مطرحها ولا شيء يمكن أن يضيع أبدا.

ازددت غيظًا من كلام عمتي، وكنت متأكـدة مـن رغبتها في افتعال قضية خلافية نتساجل فيها، ولما لم أكـن غير مستعدة لذلك خلال هذه اللحظات ومغتاظة جدا من جدة رودلفو وأحملها مسئولية ضياع أوراق قضية عثمان حفنـي الثمينة، فإنني آثرت الانسحاب من الحرب التي أعلنتها جدتي وآثرت القول:

ـ طيب. طيب.

وتجاهلت أن عمتي ليست فاهمة أي كلمة مما قلـت وكما قالت منهية كلامها وبدأت أفكر: إذن قد تكون هذه جدة رودلفو الكبرى، الجدة التي تزوجت، أولم تتزوج من عثمان حفني، لكنها كانت سبب السلالة وأصـلها، السـلالة التـي استمرت حتى رودلفو، وربما تكون هي المرأة التي عـاش معها طويلاً حتى مات أو عاد إلى مصر وبقيت معها أوراقه لسبب من الأسباب ... شعرت بحنق بالغ لأن حكاية عثمـان حفني بدت لي وكأنها على وشك الانتهاء أو أنني صرت قاب قوسين أو أدنى من معرفة تفاصيل حياة عثمان حفني وأصله وفصله، تنهدت بحرارة فبعد صفحة ثمانية وسبعين، كانـت هناك اثنتا عشرة صفحة ناقصة بالتمام والكمال ربما احتوتها حكاية عثمان حفني مع السيدة الهندية التي وقع في غرامها " وأهاجت مشاعره "، وما رأى " أنهد من نحرها وصدرها "، وظل يتسبب بالأسباب ليمر عليهـا، فالورقـة التاليـة مـن الأوراق بعد ذلك كان رقمها التسعين.

" وما كادت الأورطة تستقر ببلاد المكسـيك، حتـى صدرت الأوامر لها وللكتائب الأجنبية وفرق المتطوعين من

المكسيكيين الفرنسيين بتطهير الأراضي الحارة مـن زمـر اللصوص الذين كانوا يعيثون فيها فسادا ".

" ولما حوصرت مدينة بويبلا وهي المدينة الثانية في الأهمية من مدن المكسيك من ٢٣ فبراير علـى ١٧ مـايو الإفرنجي سنة ١٨٦٣، حيث سقطت واستسلم مـن حاميتهـا ٢٦ جنرالاً و ٩٠٠ ضابط و ١٢ ألف جندي، كان من اللازم الاحتفاظ بالمواصلات التي كان المكسيكيون يحاولون دومـا قطعها بين الساحل وهذه المدينة.

فكانت الأورطة السودانية المصرية أهم قوات صيانة المواصلات في الأراضي الحارة حتى قال القائد العـام فـي فيراكروز عن جنودها أنه ليس لديه مـا يبديـه بشـأنهم إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه ".

تنهدت وقلت " طاظ فيهم يا عثمان يا حفنـي "، ثـم تابعت قراءة السطور:

" ثم استخدم قسم من الذين وقعوا فـي الأسـر فـي بويبلا في أشغال السكة الحديد، وهي الأشـغال التـي كـان يجري العمل فيها بهمة زائدة في معظم البلدان التي صادفتها هنا، لأنها ألزم لنقل الأورطة والجنود، وأجدى من سائر مـا

عداها من سبل النقل والحركة، فدعت الحالة إلى تكليف بلوك ونصف بلوك من الأورطة السودانية لحراستهم والذب عنهم، فقاموا بذلك خير قيام وتقدمت الأعمـال سـريعا دون أيـة عرقلات أو خوف من هذه الناحية ".

تصاعدت أفكار كثيرة إلى رأسي وأنا أقرأ ما سطره عثمان حفني، وخطر ببالي في أثناء ذلك أن أعـود لكتـاب أمريكا اللاتينية مرة أخرى، فقد يساعدني ذلك على فهم مـا وراء السطور، فقد بدأت أنتبه لزمن العبيد وعالمهم، فعثمان حفني يتناول فكرة شراء جارية من السوق بمنتهى البساطة، ودونما أي خجل وهو الشيخ المعمم ويكتب عن عزوفه عـن شراء الجارية بسبب عدم وجود واحدة بالسـوق مطابقـة " للمواصفات المطلوبة"، أو تتناسب وذوقه ومزاجه النسـائي، ولاأكثر أنه يقارن بين البضاعة البشرية في هـذا السـوق، والبضاعة التي تعرض في أسواق القاهرة، تذكرت العبـارة الشهيرة التي كنا ندرسها في المدارس ونحن أطفـال والتـي قالها الخليفة عمر بن الخطـاب رضـي ا عنـه: " متـى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، كمـا تـذكرت عبارة الزعيم أحمد عرابي: " لسنا عبيدا لكم ولقـد ولـدتنا

أمهاتنا أحرارا " لقد قالها للخـديو توفيـق، " يـاه "، قلـت، وقررت أن أقرأ كتابا مفصلاً عن عرابي وثورته أحضره من إحدى المكتبات.

رغبت حينئذ في العودة إلى كتاب أمريكا اللاتينيـة وقراءة المزيد فيه، وبينما أخذت أتفحص الكلمات والسـطور بعيني وأشدد بقلم رصاص على بعض الكلمـات والجمـل، وتوقفت طويلاً عند ما يلي:

" كانت حزم العبيد التي تنجو من الجوع والأمراض وتتكدس في السفن تعرض في الأسمال جلدا على عظم فـي الميدان العام بعد أن تمر في استعراض عبر الشـوارع ذات الطراز الاستعماري على أنغام موسيقى القـرب، أمـا مـن يصلون إلى الكاريبي وقد بلغ منهم الإرهاق مبلغـه فـيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يلمعـون، وكـان الصاغة يقدمون أقفالاً وأطواقًا من الفضة للزنوج والكـلاب، وكانت السيدات الأنيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد تكسوه سترة مطرزة وطفل عبد وسـروال فضـفاض مـن الحرير ".

على الرغم من متاعب مهنة المحاماة التي ما أحببتها يوما، وعلى رغم طبيعتها المرهقة المستنفرة للجهد والطاقـة العصبية، إلا أنها مهنة مثيرة، تجعل الإنسان يعيش تفاصـيل كثيرة غريبة في الحياة والمجتمع، وفي مهنة المحاماة أتعلـم كل يوم شيئًا جديدا وأتعرف على عالم ما كنت أتخيل أننـي سأعرفه من قبل، وحكاية الحاج أحمد هدوجة من الحكايـات الغريبة التي صادفتها بالأمس خلال عملي في المكتب، فلقـد جاء الحاج أحمد وكما قال من العاصمة النيجيرية لاجـوس إلى القاهرة، وحضر إلى مكتبنا مع أخته " سمراء " المقيمـة في مصر، طالبا رفع قضية للقضاء المصري.

ـ خير يا حاج أحمد؟. تساءلت.

قالت أخته سمراء وهي في الحقيقـة سـوداء. أنهـا ورثت أموالاً هي وأحمد أخوها بعد وفاة والدتها المصـرية، لكن أولاد عم أمها رفضوا تمكين أحمد من بقية التركة، لأن البيت الذي تركته أمها كإرث بعد وفاتها، يسكن فيه أولاد عم هذه الأم، و ...

ـ لكن وما المشكلة يا ست سمراء؟

- المشكلة أن أخي بدون جنسية مصرية، وأنا حاصلة على الجنسية المصرية لأني تزوجت من مصري، وأحمد ظل على جنسية والدنا النيجيري.

- يعني أمك وأم أحمد مصرية، والأب نيجيري؟

- آي نعم. لأن الوالد ا يرحمه، كان قد تعرف إلى خالي وهو جندي في الجيش المصري، ذهب للحرب في نيجيريا و ...

- آه. جاء للحرب في إقليم بيافرا، عندما كانت هناك مشاكل في نيجيريا أظن سنة ١٩٦٨، ثم جاء إلى مصر وتعرف على عائلة خالي محمد، ثم خطب أمي وتزوجها، وأنجب منها ثلاثة بعد أن أخذها إلى نيجيريا. الحاج أحمد وأنا وأختي سميرة، ا يرحمها، لكن أمي لم تسترح في كانو ورجعت من نيجيريا إلى مصر، وكان أبي يحضر إلى زيارتها بين فترة وأخرى، لأنه كان يتاجر ويأخذ بضائع كثيرة من مصر، وبعد فترة مات أبي وأمي وراءه، وأنا تزوجت وبقيت في مصر و ...

قاطعتها:

ـ هو كان فيه حرب بين الجيش المصـري وبـين نيجيريا فعلاً.

ـ لا، الحرب كانت بين قـوات انفصـالية وبـين الحكومة النيجيرية، وفي نيجيريـا اسـتنجدوا بالمصـريين لمساعدتهم، كان الموضوع كله أيام عبد الناصـر والحكايـة خلصت والحمد ، ولكن شوفي يا أستاذة النصيب. بسـبب الحرب، أمي تزوجت من أبي!، ها ها ها ...

ابتسم الحاج أحمد بدوره، وكأن كلامها أسعده فجأة، وبدا لي حينئذ بملابسة الأفريقية البيضاء الفضفاضة، وكأنـه نيندا، أحد شخصيات عثمان حفني في أوراقه، بينما استأنفت سمراء:

ـ الحاج أحمد مبسوط وميسور، ولكن الحق حـق، يعني لأنه بعيد، وغريب، يقوم أولاد عم أمي يـأكلون حقـه ويحرمونه من شرع ربنا.

بدا لي الأمر وكأن سمراء هي التي سوف تحصـل على الورث ـ شرع ربنا ـ فالحاج أحمد " بعيـد وغريـب عني ".

قلت:

ـ لا عموما، نرفع عليهم قضية، ويكون خيـرا إن شاء ا ، ثم إني طلبت منها أن تصور كافة المستندات التـي تثبت حق الحاج أحمد في الميراث وتوافيني بهـا، وكـذلك أوراق ومستخرجات رسمية أخرى لازمة لإثبات حقـه فـي الملكية، ثم إني غادرت المكتب عند نهاية اليوم بعد انتهـاء العمل، وبينما كنت أستعد لركوب مترو الأنفاق في طريقـي إلى البيت، رحت أفكر في حكاية بيافرا هذه التي لـم أقـرأ عنها في كتاب مدرسي أو جريدة وأتسـاءل: هـل حـارب المصريون فـي أفريقيـا أيضـا، أو حـارب المصـريون الأفريقيون في أفريقيا؟. لماذا؟. ما المشكلة؟، وما الفائدة؟. لا أعرف.

وعدت نفسي وأنا عائدة إلى البيت بأن أقرأ شيئًا عن هذا الموضوع، موضوع الجيش المصري في بيافرا، وتمنيت أن تكون عمتي قد عملت لي بسيسة الـذرة التـي وعـدتني بخبزها قبل خروجي في الصباح.

لدى عمتي هواية اقتناء الأشياء القديمة، لذلك فهي لا تكف عن الذهاب إلى المزادات واللف والدوران بين الحـين

والحين على محلات الأنتيكات، لتعود من ذلك بساعة حـائط لا تحتاجها لأن الوقت لديها بجرعات كبيـرة، أو بفـازة أو شمعدان لا لزوم لهما على الإطلاق، عموما أنا لا أجد معنى لكل ذلك، لكني لا أرى فيه ضررا أيضا، وأقول: هي تسـلي وقتها، عندها فراغ هائل، وصباح اليوم، الجمعـة، دعتنـي للخروج معها والفرجة على سوق الجمعـة، ولكنـي وكمـا تعودت مني دائما، رفضت واقترحت عليها أن تأخذ واحـدة من صديقاتها، لكنها قالت:

ـ لا، أصل سوق الجمعة في الإمام، سـأروح بعـد صلاة الجمعة إن شاء ا ، وهو سوق شعبي خالص، لكن فيه كل حاجة، عزيزة الشغالة قالت لي عليه أول امبارح وهـي قاعدة تعمل ورق العنب، أصلها كانت لابسة خاتم فضة بفص مرجان، حلو خالص وقديم، فلما سألتها قالت أنه من سـوق الإمام، وتصوري بخمسة جنيهات بس.

تثاءبت وقلت:

ـ يا عمتي يوم الجمعة هو اليوم الوحيد في الأسبوع الذي أقدر أحط جسمي وأستريح فيه بعيدا عن المواصـلات وقرفها، وزحمة وسط البلد، روحي مع عزيزة أحسن.

ـ والنبي فكرة ... خلاص، بكرة لما تصل الصـبح لتنفيض الشقة أتفق معها.

لكني فجأة تداركت، وقلت بحماس:

ـ لا ... أحب أروح معك.

كانت صور سوق غريب، قد قفزت بمخيلتي للتـو، صور سوق رسمه عثمان حفني في أوراقه، فقد أغلقت عيني قبل أن أنام على مشاهد من سوق هندي في مكسيكيا رآه منذ ما يقرب من قرن ونصف، وكله في أوراقـه القديمـة فـي صفحة ٩٦، وما تلاها:

" وكان هناك بائعون يبيعـون اللوبيـا والمريميـة والخضراوات بأنواع وأصناف عديدة، لم أشهد مثلها من قبل في مصر، وكان يوجد من يبيع الدجاج والـديوك الروميـة، والأرانب البري منها والمستأنس، والغزلان ومنها نوع يسمى بيكونيا وهي كصورة الغزال ولكن بلا قرون، فهذا الحيـوان وكما علمت بعد ذلك عندما تساءلت عنه، هو قوي أنيس لـه صوف ناعم كالحرير يصنعون منه البرانيط والطواقي التـي تباع في السوق أيضا وصوفه يشـبه التفتيـك أي الصـوف الناعم، لكن لونه عسلي كلون الغزال، وفي بطن هذا الحيوان

يوجد حجر البازهر بين كليتيه فيخرجونه ويبيعونه بثمن غال لأنه نافع للسموم.

ثم هناك بائعو الفاكهة، وصنوفها تكون شتى، وكذا أحجامها، وجل أنواعها غير معروفة لدينا في بر مصر، ومنها نوع عجيب اسمه السبوت يؤتى به أخضر لم ينضج بعد من على الأشجار، ثم إنه يشترى من السوق على هيئتة، ثم يلف في شيء من الخرق أو الهدوم ويترك على حاله لفترة من الوقت، قد تطول إلى ثلاثة أو أربعة أيام، فينضج ويؤكل ما بداخله بعد أن يصبح محمرا طريا، وهو لذيذ للغاية، ومسهل للبطن الممسكة، وقد احتفظت بجانب من بذوره، لإنباته عندما أعود إلى مصر إن شاء ا .

وتوجد بالسوق نساء هنديات يبعن الطعام المطبوخ على طريقة هؤلاء الهنود العبيد، وكذا كعكات الدقيق والعسل والكرشة، إضافة إلى باعة الأواني الخزفية من كل نوع من أباريق المياه الكبيرة، إلى البرطمانات الصغيرة، والعسل والحلويات الشبيهة بحلويات مثل النوجا والملبن، وهناك من يبيع الورق المسمى بلغتهم " آمال "، وبعض قطع من سيقان

البوص ذات رائحة العنبر السائل وهي مليئة بالتبغ والمراهم الصفراء وأشياء أخرى من هذا القبيل تباع في مكان منفصل.

ولا أنسى باعة الكوتشييل وبائعي الأعشاب، وبائعي الملح وصانعي السكاكين من حجر الصوان، وبائعات السمك والرجال الذين يبيعون كعكات صغيرة مكونة من نوع مـن الأعشاب يستخرجونه من البحيرة العظيمة بهـذه الفرضـة، وهو يتخثر ويكون نوعا من الخبز له مذاق الجبن، ثم هنـاك من يبيع البلاط المصنوعة من البرونز والنحاس والقصـدير، وأواني وأباريق خشبية مطلية بألوان زاهية ".

بت متيقنة تماما أن عثمان حفني من الرجال الـذي أثروا في تفكيري تأثيرا كبيرا، بالأحرى، لقد تعلمـت منـه الكثير مما كنت في الحقيقة أجهله، كان عثمان حفني بمثابـة إشارة إلى طريق، لم أكن أظن يوما أنني قد أسـلكه، فكلمـا توغلت في قراءة أوراقه المجهولة الصفراء، أكتشف أنني لم أعرف يوما - من قبل - ما كان يجب أن أعرفه، وأنني لم أتعلم شيئًا في المدارس والجامعة يستحق التوقـف والتأمـل، مثلما أتعلم مـن هـذه الأوراق الآن، لقـد اكتشـفت أننـا كمصريين، أو سودانيين، أو أفارقه، أو عرب، لم نكف يوما،

وعبر التاريخ عن صناعة التاريخ، ولكننا نعرف أقـل مـن القليل عن ذلك التاريخ الذي شكلناه وصنعناه بعرقنا ودمائنـا وأرواحنا، إننا بالأحرى لا نعرف شيئًا عن أنفسنا ... رحت أستعرض في ذاكرتي مناهج، وبرامج التاريخ التـي كانـت مقررة منذ دخولي المدرسة وحتى تخرجي من الجامعة، لـم تكن - وفي أفضل الأحوال - أكثر من عجالات وابتسارات وقشور هزيلة لا تؤول إلى مغزى، وفي العموم هي حقائق تم تزييفها وإخفاء أهم ما فيها من دلالات، نحن لـم نعـرف أو ندرس شيئًا كطلاب عن تجارة العبيد مثلاً، لم نعرف شـيئًا عن العبيد إلا من الروايات والأفلام والمسلسلات الأمريكيـة الشهيرة، وكأن الفصل الأول، المفتتح الأساسي لهذه الصفحة السوداء المظلمة من تاريخ البشرية، لم يحدث هنا، هنا فـي أفريقيا التي نعيش فيها وننتمي إليها، وما تخيلنا يومـا أننـا جزء منها كمصريين، إن عثمان حفني يتحدث في صـفحته عن رغبته في شراء جارية بمنتهى البساطة وكأن ذلك أمـر عادي، ولكن ما قرأته في الصفحة السابعة عشرة بعد المائة، من هذه الأوراق بدا لي مستحقًا للتأمل والتفكير:

" ولقد أخبرني الملازم فرج عزازي، وهو الخبيـر العليم في شئون العسكرية، أن معظم العبيد السود المجلوبين إلى مصر زمن الباشا الكبير محمد علي، إنما كانوا لتغذيـة الجيش بالجند وعمل الأورط، فكان الآيان الواحد يتألف مـن هؤلاء العبيد من ثلاث أورط، والأورطـة الواحـدة ثمانيـة بلوكات.

وكذلك علمت منه أن العبيد السود، كـانوا يعملـون كذلك في مصانع البنـادق والمـدافع والبـارود والحـدادة، والمهمات التي أنشأها الباشا الكبير في القلعة، كما أن النسوةّ العبدات السوداوات كن يشتغلن بمدرسـة الـولادة، وكـان الخصيان يعملون في خدمة وراحة حريم الأسـرة الكبيـرة للباشا، وقد ذكرني ذلك بما حكيته لألماس أفندي بينمـا كنـا نتسامر ذات ليلة على ظهر المركـب قبـل وصـولنا إلـى فيراكروز بقليل عن حادث وقع لي يتعلق بذلك الأمر، فقد تم تطويش عبد صبي صغير في قرية زاوية الدير قرب أسيوط، وهي من القرى والأماكن المعروف عنها حرفـة التطـويش والجب، وكان الوقت خريفًا كما هو متبع لعمل مثـل هـذه العمليات التي اعتاد القساوسة الأقباط القيام بهـا لمهـارتهم

فيها، فتم قطع موضع الذكورة لدى الغلام بموسي، وجـرى صب الجرح بزيت مغلي كما هو متّبع، ووضعت الأنبوبة في الفتحة الباقية حتى لا ينسد مجرى البول، وبعد ذلك تم رشـه بمسحوق الحناء، وجرى دفن الصبي حتى بطنه في الأرض لمدة يوم كامل بعد تقييده وربطه، غير أنه بعد مرور اليـوم وبينما هم يخرجونه لدهنه بمرهم الطمـي والزيـت، تشـنج الصبي ورفس واتضح أنه مصـروع وقـام بعـض لسـانه وقطعه، وكنت قد شاهدت ذلك كله أثناء خروجي إلـى هـذه البلدة بأسيوط مع ابن عمتي الحاج خليل، إذ كان ثريـا مـن أعيان الحفن، ورغب في شراء فتى خصيا يهديه لواحد مـن أجلاء معارفه في طنطا، ليقوم على خدمة حريمه، وعنـدما مات الصبي، كانت الخسارة كبيرة لمالكه، لأن المطوش يباع بسعر مرتفع يفوق كثيرا ما يباع به العبد العادي لأن الغـلام سليم البنية الذي لا يطوش يباع وحسـب حالتـه مـا بـين أربعمائة إلى خمسمائة قرش، فمـا بـال بـذلك المطـوش المخصوص ".

" وكان الملازم فرج عزازي وكمـا علمـت منـه، تقلاويا في الأصل، نسبة إلى جبال تقلى الواقعة في الجنـوب

الشرقي لمدينة الأبيض، وهي عاصمة إقليم كردفان، قد خطفه النخاسون وهو طفل صغير وباعوه في مدينة أسوان لرجل من قبائل الهوارة المشهورة في بر الصعيد كله، بما لها من سطوة ونفوذ، وكان ذلك الهواري يقيم في بني سويف، ثم إن الملازم فرج عزازي لما شب، انتظم في سلك الجندية في عهد المغفور له عباس باشا الأول، ومنح رتبة الملازم الثاني في إبان ولاية ولي النعم الحالي وجاء مع الأورطة إلى المكسيك، وقد لاحظت أثناء حديثنا عن العبيد وأحوالهم أنه صار حزينًا كئيبا فاقدا لبشاشته المعهودة، وقد قال لي أنه رغم مرور السنوات الطويلة وانشغاله بما ينشغل به الناس في هذا الدنيا من أمورها الفانية، إلا أنه لا يتشوق لأمر، ولا يتمنى أمنية، قدر تشوقه وتمنيه معرفة طريق أهله، والوصول إليهم بأي شكل من الأشكال، وقد قال لي أنه طالما أرسل المراسيل، ودفع من الأموال الكثير، حتى يتحقق ذلك الأمر دون جدوى، وأن ما يؤرقه أكثر هو أنه لم يعد يذكر وجه أمه أو ملامح أبيه، فقد خطف وهو في حوالي الخامسة من عمره ودون سن الوعي والتفطن إلى الأشياء ".

قلت: ألم تقل له يا عثمان حفني، أن النخاسين ربمـا خطفوا أمه وأباه، وربما بقية أهله كلهم أيضا؟. ألم تقل له يا عثمان يا حفني كف عن البحث وعوضك علـى الله فـيمن فقدت من أحباب؟ ألم تعتذر له وتتأسف عن المخازي التـي ارتكبت في حق الإنسانية بسبب جـرائم العبوديـة الداميـة البشعة؟.

ليتني أعرف ما الذي قلته له، وليتك كنت قد كتبـت شيئًا في هذا الأمر، أو لعلك كتبت - وإن كنـت أظنـك لا تستنكر العبودية - وقررت جدة رودلفو محوها من ذاكـرة التاريخ على طريقتها الخاصة، عموما، كانت أوراق حفنـي آخذة في التناقص وحكاياتها لا تنفك عن الترسب بأعمـاقي ألما وحزنًا ودهشة من قسوة عالمنا وعنفه وتنـوع أسـاليب الفتك بضحاياه من البشر، لم أكن وحتى هذا الحد من قراءتي لأوراق عثمان حفني، قد وجدت ما يشفي غليلي، ويوصـلني بخيط ما حقيقي إلى قصته وأصله وفصله، وبت أكثر تشوقًا - ربما من رودلفو - لمعرفة نهاية هذه القصة، أو بالأحرى بدايتها، ولكن ما بتّ متيقنة منه تماما أن هـذه الأوراق قـد جعلتني كغصن شجرة هزته الريح ولن يعود بعد ذلك إلـى

موضعه الأول أبدا، كان ثمة شيء قد تغير في، شيء جعـل رأسي مسرحا لعشرات الأسئلة، أسئلة شعرت أنها أسئلتي أنا وأنها تخصني شخصيا في المقـام الأول ولـيس رودلفـو، فالموضوع لم يعد بالنسبة لي، مسألة شـخص يبحـث عـن عائلته المفقودة، وجده البعيد، بل هو موضوع بشر وأنـاس أنتمي إليهم أنا الأخرى، انتماء أكبر، بشر وأنـاس عاشـوا وماتوا دون أن ينتبه أحد إلى حياتهم، أو يهتم بها، بكل مـا حوته من آلام وآمال، ودموع حرب ... لم يختـاروا يومـا دخولها أو المشاركة فيها، وأجبروا على أن يكونوا وقودهـا ونارها إجبارا.

لم يعد يعنيني - وللحقيقة - موضوع عائلة رودلفو، وجده عثمان حفني، فلقد خبا حماسي له، فحتى لو توصـلت إلى أي خيط في هذه الأوراق، إلى بقايا هذه العائلة ومكـان وجودها في مصر الآن، فسيكون ذلك بمثابة تحصيل حاصل، والتزاما بعهد قطعته مع نفسي لرودلفو. قـررت أن أكتـب رسالة لرودلفو عن الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها كلهـا، وكان آخر ما قرأته هو صفحة ستة وستين حيث كتب عثمان حفني:

" وكنا في شهر ديسمبر عندما أبلغت الأورطة فـي فيراكروز أن إمبراطورة المكسيك ستمر بالبلاد وهي ذاهبـة إلى بلادة اليقطان إحدى الولايـات فـي مكسـيكيا، فتأهبـت الأورطة وتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتأمينها عند مرورها بالبلادة، وعمل المراسم والتشريفات اللازمة لدى وصولها إلى الأراضي الحارة".

" وفي صبيحة ١٤ منه سافر حرس مؤلف من ثلاثين جنديا من الأورطة السودانية المصرية بالقطار المخصـوص الذي ركبه الحاكم والأعيان الذين وفدوا لمقابلة الإمبراطورة.

ولما وصلت إلى فيراكروز وجدتها امـرأة كبيـرة السن، ترتدي الملابس الإفرنجية الفضفاضة، وكانت غاية في الأبهة، تكسو جيدها بمجوهرات شتى، مـن مـاس ولآلـئ وياقوت وزمرد، ثم إن رجال مدفعية الأورطة أطلقـوا لهـا مائة طلقة وطلقة مدفع إكراما لها، وتألف من الحامية المؤلفة من جنود الأورطة وجنود آخرين صفان من المحطـة إلـى القصر، وأقيم قره قول شرف من خمسين جنديا مـن جنـود الأورطة في القصر بقيادة يوزباشي وملازم.

ولما كانت الإمبراطورة ستسافر في صـباح اليـوم التالي من فيراكروز، فقد سافرت قبلها كوكبـة مـن جنـود وضباط الأورطة لاستكشاف الطريق، ولتصطف على طول السكك الحديدية، ولم تلبث الإمبراطورة في اليقطـان سـوى بضعة أيام، ولدى إيابها، عمل لها جميـع مـا عمـل مـن التشريفات والاحتفالات عند مرورها بفيراكروز، فلما عادت إلى مكسيكو أعربت للإمبراطور مكسيميليان عـن رضـاها وحبورها لهندام الجنود السودانية وكفاءتهم العسـكرية التـي حازت إعجاب جميع رجال البلاط وقد أخبرني بذلك ألمـاس أفندي بنفسه، ثم إن الإمبراطور مكسيميليان، منح كل جندي من جنود الأورطة علاوة يومية على الراتب ٣٣,٣ سنتيم أي ما يساوي واحد قرش وخمسة عشر مليما مصريا، كما تـم الإنعام على بعض الضباط بالأوسمة ".

" وفي الثاني من شهر مارس سـنة ١٨٦٥، نشـبت معركة طاحنة بين الأورطة وبين المهاجمين مـن الأعـداء، وقد أسفرت المعركة عن مقتل مارشال الفرقة الفرنسي، وقد استبسل أثناء القتال الضاري الجنود والضـباط المصـريون السودانيون، وبعدها ونظرا للبطولات الكبيرة التي قاموا بهـا

لصد الهجوم، تم الإنعام بأوسمة عسـكرية ونياشـين علـى الأنباشي مرجان مطر والعساكر رمضـان كوكـو وعلـي إدريس وأنجلو سودان ونوه بأسمائهم ".

" وبعد ذلك بشـهر، جاءتنـا الأنبـاء مـن مصـر المحروسة أن الخديو إسماعيل باشا، أنعم بالوسام المجيـدي من الدرجة الرابعة على الماجور مارشال مكافأة لـه علـى عنايته بشئون الأورطة قبل أن يعلم بوفاته، كمـا ورد أمـر عاجل إلى صاغ الأورطة تم قراءته علنًا على الجميع، وقـد أثنى فيه سمو الخديو على المسلك الحميد والمـنهج السـديد لضباط وجنود الفرقة وأنه يجري في مصر ترتيب ضـباط وعساكر بدلاً منهم ليرسلوا إلى مكسيكيا، وأنه قريبا إن شاء ا سيرسل ذلك البدل المذكور، ونعود نحن جميعا إلى مصر المحروسة، حيث إن إقامتنا في مكسـيكيا قـد طالـت، وأن غربتنا عن الوطن قد زادت. كما تلا نص الفرمان المتعلـق بالنيشان المجيد المهدي من السلطان عبد المجيد والمنعم بـه على البكباشي مارشال الفرنسي، والمسكين لن يعرف بكـل هذا ولن يستفيد منه بعد أن قتل، وهنا تمثلت قول الشاعر إذ يقول:

أتيت القبور فناديتهن   أيـن المعظـم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه   وأين المزكى إذا ما افتخر

" ومن محاسن الصدف أنه أثناء وجودنا ببلادة جومس بلاسيو مع الأورطة إذ كانت الأوامر قد صدرت بـالتحرك إليها لمقاومة العصابات المغيرة عليها يوما بعد آخر، وأثناء تجوالي في البلدة، وهي من البلدات الجميلة العامرة بالأشجار المثمرة والأبنية والقصور التي ما رأت عيني قط مثلها مـن قبل، وبينما أنا أتجول، إذ وجدت رجلاً وسيما عربي الهيئـة يتطلع في سحنتي ويتفرس، ثم إنه أقبل علي، وأقبلت عليـه وقد أخذني الحنين ودفعتني روابط الدم دفعا لمحادثته، فعرفت أن اسمه حضرة سليم أفندي الحاج، ثم إننا جلسنا في مشرب من مشارب البلدة نتحادث سويا، فعرفت أنه من بلدة بحاجيـا بلبنان وأنه عضو بكلوب روتاري، وأنه جاء إلى هذه الـبلاد لزيارة بعض أقاربه الذين هاجروا إليها، وأنه يفكر جديا في الهجرة إليها، والاشتغال بالتجارة فيها، خصوصـا بعـد أن لمس بنفسه نجاح أقاربه هؤلاء وتحقيقهم للثراء، وكان سـليم أفندي وكما أدركت من كلامه رجلاً قارئًا مطلعا، في عقلـه ذكاء واستنارة، فقال لي أن الفرنسـاوية سيخسـرون هـذه

الحرب لا محالة، وأن هذه البلاد لابد وأن تقع تحت هيمنـة الحكومة الأمريكانية، وقد قال لي أنه تفطن إلى ذلـك لأنـه جال في بلدان ومدن كثيـرة فـي أمريكـا اللاطينيـة، وأن الفرنساوية لا تضارع قوتهم، وكذلك الدول الأخـرى قـوة الأمريكان ودهاءهم، ثم إنه أخبرني، أنه بينما كان يتجول في شوارع البلدة في اليوم الفائت، شاهد على عتبة باب كنيسـة من كنائسها كتابة البسملة بالعربية الواضحة وبخـط نسـخ جميل، وأنه حار فيما إذا كانت الكتابة قديمة أم هـي كتابـة جديدة، وأنه سأل بعضا من أهل البلدة عنها، فقـالوا لـه أن واحدا من المصريين السودانيين الذين يعسكرون هنا هو الذي كتبها، وعندئذ تبسمت، وقلت له أني كاتبها منذ عدة أيام، ولا أدري لماذا، فالكنيسة جميلة البنيان ومزينة بزخارف بديعـة، وربما اشتهيت أن تكون جامعا للصلاة، فكتبت ما كتبته وأنا أدرك أن الأهالي لا يقرءون العربية ولـن يفهمـوا معنـى العبارة، وحتى إذا فهموا فهي باسم ا الرحمن الرحيم، وهذا أمر مقبول به في كل الملل والأديان ".

سامي، أخي الوحيد غير الشقيق، هو الأثر الوحيـد الباقي لي من أمي، والدليل المستمر على زيجتهـا الأولـى

الفاشلة قبل زواجها من أبي. عاش سامي مع أبيه بعد انفصال الأخير عن أمي، ثم سافر بصحبته إلى هولندا حيث عاش معظم سنوات حياته وتعلم، منذ سنوات قليلة، وبعد وفاة أبيه سعى للاتصال بي، وكان أبي وقتها ما يزال على قيد الحياة، والحقيقة فإن أبي رحب ترحيبا شديدا بعودة العلاقات المقطوعة تاريخيا مع أخي واعتبرها حدثًا من أهم حوادث حياته على الإطلاق، لكن سامي، على رغم تكرار زياراته لنا، وهي زيارات قليلة على أية حال ولا تتم إلا عندما يأتي لزيارة عائلة أبيه في مصر، ظل شخصا غريبا بالنسبة إلي، فأنا لم أمارس علاقة الأخوة معه منذ صغري، بالأحرى لم أفهم - شعوريا على الأقل - فكرة الأخ، وربما يعود السبب في ذلك أيضا إلى أن سامي بدا لي وفي النهاية كواحد مصري ينقصه شيء مصري، لا أدري على وجه التحديد ما هو؟، رغم أن تربيته تبدو مصرية تقليدية، مع كل السنوات الطويلة التي عاشها مع أبيه في هولندا.

لكن عموما علاقتنا ظلت طيبة، فهو يرسل لي الرسائل ليطمئن على أحوالي بين الحين والحين وخصوصا بعد وفاة أبي، كما ظل حريصا على إرسال هدايا، ليس لي

فقط، ولكن لعمتي باعتبارها كل ما تبقى لي من عائلـة فـي مصر.

يوم الخميس الماضي، فوجئت برجل عجوز أسـمر يدخل مكتبي بصحبة شاب صغير وسيم، كان العجوز يبـدو متبرما متضايقًا وهو يرتمي على أقرب كرسي التقاه بالقرب من باب المكتب، بينما رأيت الشاب يسـأل نفيسـة فراشـة المكتب عني، فأدخلته الغرفة وهي تشير نـاحيتي وبـادرني الشاب قائلاً وهو يتقرب مني:

ـ الأستاذة خالدة خالد، أنا محمد عبد السميع صديق لسامي أخو حضرتك، وصلت من حوالي أسبوع من هولندا، وسامي بخير ومعي رسائل وحاجات منه لحضرتك.

ـ أهلاً وسهلاً ... قلت وأنا أقف وأمد يدي لتحيتـه، وأشير عليه بعد ذلك بالجلوس ... ناولني حقيبة بلاسـتيكية بها " الحاجات " التي أرسلها سامي وقال وهو يجلس علـى مضض:

ـ سامي نازل على آخر الخريف إن شاء ا ، كـان عاوز ينزل مصر معي لكن ظروف شغله لم تسمح.

ـ آه. شغل الجامعة صعب جدا. أنا شفت ظروفـه بعيني، ووقته الضيق لما كنت هناك.

بدا لي وكأنه لا يرغب بالمزيد من الحـوار إذ قـال بسرعة:

ـ الحقيقة أنا مستعجل لأن وقتي محدود وضيق جدا في القاهرة، لكن معي زوج عمتي وهو رجل كبير في السن، وسامي كان اقترح أنه يزورك ويعـرض علـى حضـرتك مشكلته لأنك على علاقة بمسائل حقوق الإنسان، وهو موجود بره، وأنا كنت حكيت حكايته لسامي من فترة، وهو قال لـي لما تنزل مصر رح مع زوج عمتك وقابل خالدة.

ـ خليه يتفضل، قلت وأنا أقف مرة أخرى لاستقبال العجوز الأسمر الذي أتى به في التو قريبه " المستعجل ".

وهكذا تعرفت على عبد النبي إدريس عـن طريـق أخي سامي المقيم في هولندا ويا للمفارقة، فالهدية الحقيقيـة التي أرسلها سامي لي هذه المرة مع صـديقه محمـد عبـد السميع، لم تكن البلوزة الصوف الموهير اللبني، ولا زجاجة عطر روشان ولا الإيشارب الشيفون المشجر لعمتي، ولكـن حكاية عبد النبي إدريس كانت الهدية الكبرى وواحـدة مـن

أجمل الصدف ودواعي التوفيق التي صادفتها فـي حيـاتي خلال الشهور الأخيرة.

عبد النبي إدريس حكايته غريبة جدا، فهـو رجـل عجوز، كان يعمل بمصلحة المساحة بالدقي منذ أربعينيـات القرن الماضي، حتى أنهى مدة خدمته القانونية وبات يتقاضى معاشًا من الحكومة، وهو ميسور " والعيشة رضا والحمد "، وهو يرغب في رفع قضية على الحكومة لتعطيه جـواز سفر، لأنها ترفض ذلك كما يقول، فهو يريد أن يذهب إلـى السعودية ليرى ابنته الوحيدة، التي سـافرت مـع زوجهـا وتعيش هناك، ولأنها وعدته بأن يظل عندها حتـى " يحـج ويكمل أركان دينه كلها ".

ـ ا !؟ ولماذا ترفض الحكومة إعطاءك جواز سفر يا عم عبد النبي؟ قلت.

ـ كلام فارغ وا ، قالوا لي أنـت سـوداني. روح السودان وهات جواز سفر ... تصوري.

قلت:

ـ ا ، هو أنت سوداني ولا مصري؟

ـ أنا مصري طبعا عشت هنا طول عمري، ولكـن أمي ولدتني في الخرطوم، كانت في زيارة لأهلها ووضعتني هناك، لكن أنا مصري سوداني ولازم يعطوني جواز سـفر. يعني أنا خدمت أربعين سنة فـي الحكومـة فـي مصـلحة المساحة، وفي الآخر يقولون لي في مصلحة الجوازات أنت سوداني. شهادة ميلادك في السودان ورح هات جواز سـفر من الخرطوم. يصح؟.

ـ طيب هل عندك أية أوراق تثبت أنك مصري؟

رد بعصبية وكأنه على وشك الانفجار:

ـ أوراق؟. أقول لك أني مصري. عندي بيت ملـك مسجل في الشهر العقاري، وعشت طول عمري هنا، ودخلت الجيش وحاربت في سنة ١٩٤٨ في فلسطين، وبعـد انتهـاء تجنيدي رجعت لمصلحة المساحة وتم تثبيتي بها، وقبلها كنت موظف ظهورات غير مثبت وحياتي كلهـا هنـا، ومصـر والسودان كانت عبارة عن بلد واحد، وجـدي حـارب مـع الجيش المصري في المكسيك و ...

هتفت بابتهاج ودون أن أتمالك نفسي:

ـ في المكسيك؟. وا العظيم حارب في المكسيك؟

فوجئ الرجل برد فعلي، فتوقف عن الكلام ينظر لي مندهشًا، بينما راحت نهال زميلتي الجالسـة علـى المكتـب المجاور لمكتبي تضحك مما جعل الرجل يتساءل:

ـ حصل شيء يا أستاذه؟ مالكم؟.

ـ لا ... أبدا لكنك قلـت أن جـدك حـارب فـي المكسيك، من قال لك عن هذا الموضوع؟.

ـ ا ... أصلها حكاية طويلة ... طويلة، تتنفع وا تحكى للعيال كما الحواديت.

ـ طيب. تعرف عنهـا أي شـيء؟ سـمعت عـن الموضوع من أي قريب لك؟.

ابتسم عبد النبي إدريس بمرارة، شعرت أنـه رجـل دعكته الحياة بهمومها ومررته بمراراتها إذ قال:

ـ يا أستاذة جدي أنا كان الأميرالاي فـرج الزينـي بك، ولو قرأت في كتب التاريخ ستجدي أن اسمه مكتـوب، ومسجل وقد خاض معارك مهمة سنة ١٨٦٥ هناك وأصيب خلالها بإصابات شديدة نظرا لحماسته وبسالته فـي القتـال، وكانوا وقتذاك ما زال يحمل رتبة ملازم وكان يقود مـؤخرة الأورطة المصرية السودانية في المكسيك، وقد قام بخـدمات

جليلة كثيرة للجيش، ولما عاد حصل علـى رتبـة اللـواء، والفريق وقتل في واقعة الخرطوم بيد الدراويش فـي مـايو ١٨٨٥، وأنا حافظ تاريخ جدي كله لأن أمي عنـدما مـات جدي كان عمرها سنتين، وبعد وفاة والدتها تولـت تربيتهـا عمتها وهاجرت بها إلى كسلا بعد أن استولى الدراويش على جميع ممتلكات جدي " أبوها " وفي سنة ١٨٩٠ تقريبا قامت عمة أمي ومعها ثلاثة من العبيد ودادة البنت التي هي أمـي للسفر إلى مصر، فاعترضهم الأعـراب والـدراويش فـي الطريق بين سنهيت وكسلا، وقتلوا عمة أمي المسكينة والعبيد الثلاثة وأخذوا البنت والدادة، ولكن يشاء السـميع العلـيم أن يتعرف على البنت والدادة بعض العسـاكر الـذين تجنـدوا باشبوزق بالطليان (لم أفهم معنى ذلك) فأخذوهما وقـدموهما لحاكم سنهيت الذي أرسلهما إلى مصوع فسواكن فمصر، فلما حضرت أمي مصر كان القائمقام صالح بك حجـازي حيـا يرزق فالتزم بها وتبناها وصارت أمي تعـيش مـع دادتهـا بمنزله، وطلب لها من الحكومة أن تربط لها معاشًا تعيش به الطفلة التي هي أمي، وتعويضـا مناسـبا أسـوة بالضـباط والموظفين الصف والعساكر والباشبوزق، وكـان الـرد لا

معاش لها ولا تعويض لأن والدها أي جدي هو السبب فـي سقوط الخرطوم، تصوري يا أستاذة، يعني في الأول وفـي الآخر ظلم من الحكومة، ولكن ربنا لا ينسى عباده المؤمنين أبدا. يعني ربنا فتح عليها، وتزوجت وأنجبتني مع المرحومة أختي وأخي. لكن خلينا في موضوع الجـواز. أنـا عـاوز أخلص من موضوع جواز السفر.

تنهدت وقلت:

- آه. خلينا نرجع لجواز السفر!

جلست لآكل طبق كشري بالدقـة طبختـه عمتـي للعشاء، " أصلي بقى لي مدة يـا خالـدة ناسـية الكشـري والنهاردة خطر على بالي، قلت أعمله وخـلاص. رغـم أن طبخه غلبة على الفاضي ". كان لذيذًا بالفعل، قلت لها ودون أن أرفع عيني عن سطور كتاب رحت أقرأ فيه:

- تسلم يدك ولا غلبة على الفاضي ولا أية حاجـة أبدا. طالع ممتاز.

ثم تابعت القراءة:

" ولما وصل عرابي، تفقد علي بك فهمي فلم يجـده وأخبره بعض الضباط أنه وزع آلاي الحرس داخل السـراي

ومعه كمية وافرة من الذخيرة، وأنه على استعداد للدفاع عنها إذا مست الحاجة، فبعث إليه من فوره بالملازم محمد أفنـدي ليستدعيه، فحضر علي بك فهمي فسأله عرابي عـن سـبب جعله العسكر على أبواب السراي ومنافذها من الداخل، ولـم يكن هذا اتفاقهم من قبل فطمأنه علي بك فهمي وقال له: " إن السياسة خداع "، أي أنه لم يفعل ذلك إلا لمخادعـة الخـديو وأنه باق على عهده، فطلب إليه عرابي أن يسحب آلايه مـن السراي ويأخذ مكانه في الميدان، ففعل. وأمر بخروج الآلاي من السراي، فخرج منها الجند جميعا، واصطفوا إلى جانـب إخوانهم في المكان المعين لهم من الدائرة، ثم تم ترتيب الآي المدفعية والفرسان والمشاة على شكل مربع، وجاء بعد ذلـك الآلاي الثاني من قصر النيل يقوده بعـض ضـباطه وذلـك لامتناع قائده وكبار ضباطه عن الاشتراك في الحركة، ثـم جاء الآلاي الثالث قادما من طرة بقيادة عبد العال حلمي بك".

" إذًا " قلت لنفسي واستطردت: " فلقد كـان هنـاك الآلاي السوداني أيضا، ا ... ا ، حتى في الثورة العرابية كان هناك الآلاي السوداني؟، تساءلت وأنا أفكر، هل ما حدث في المكسيك لجنود هذا الآلاي، كان سببا في تمرده ورفضه

العبودية والاستمرار في التعامل مـع الجنـود السـودانيين والمصريين كحد أدنى وأقل شأنًا من الضباط الأتـراك؟، أو كما قال عرابي للخديو: لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ولن نكـون عبيدا بعد اليوم ".

رفعت رأسي عن الكتاب ... كتاب الثورة العرابيـة لعبد الرحمن الرافعي، وسألت عمتي وأنا أبلع خلطة العـدس والأرز والمكرونة التي ملأت فمي: تعرفي أي شـيء عـن ثورة عرابي يا عمتي؟، هل تعرفي أن " الأورطة السـودانية والتي عاد جنودها من المكسيك إلى الآلاي السـوداني، قـد شاركوا في ثورة عرابي ".

رفعت عمتي عيناها عن المراية التي كانـت تتأمـل وجهها فيها وتلتقط بعض الشعيرات النابتة في ذقنها وقالت:

ـ ثورة عرابي؟، ومن لم يسمع عن هوجة عرابي، وأنا صغيرة ياما سمعت عنها حكايات، تعرفي الحاجة خديجة سلفة بنت عمتي نجاح، أصلها من الشرقية من ميت رزينـة بلد عرابي وتقرب له من بعيد حسب قولها وبيت أهله موجود لحد دا الوقت هناك.

قررت عمتي إعادة دهـان الشـقة " لأن الحيطـان تتوسخت خالص، ولونها أصبح يقرف الكلاب ". كنت أدرك أن عمتي تبحث عن قضية وسبب لتشغل نفسها. أظن أن هـذه المرأة ستعيش حتى آخر يوم في حياتها تبحث عـن قضـية وهدف، لملء الفراغ الهائل الذي يمكن أن ينفجر بـداخلها، فراغ مصنوع من السأم والملل وافتقاد بوصلة الوجود. قلت لها: " براحتك يا عمتي "، لكني سأذهب وأعيش مـع نهـال حتى تنتهي من موضوع البيـاض وتوابعـه، أو: " أول مـا تنتهي من أودتي، أرجع ".

بالفعل وضعت بعضا من ملابسي في حقيبة صغيرة وذهبت إلى نهال، تاركة عمتي واقعة في حيص بيص كمـا يقال.

كنت قد قرأت ما تبقى من أوراق عثمان حفنـي إلا قليلاً أعترف أن عملية القراءة غير سلسة على الإطـلاق، فالخط باهت، والتشكيل يكون معوقًا للقراءة (أحيانًـا)، لـم يكن فيها ما يشفي غليلي أو يقودني إلى ضالتي المنشـودة. حسابات ومشتروات تخصه، كشف بمدخرات جمعهـا مـن راتبه وينوي الاحتفاظ بها حتى يعود إلى أهله في مصر، لا

شيء عن عائلته، ولا سيرة لخطابات أرسلها لهم في مصـر مثلاً، لقد أتت جدة رودلفو على كل شيء، ويبدو أنها كانـت تفضل الأوراق المحتوية على معلومات عائليـة أكثـر مـن غيرها لتغذي بها نيران طقوسها السحرية وتجنني، حتى مـا كتبه عن المرأة الهندية ظل ناقصا، هل تزوجها؟، هل ظـل على علاقة بها؟، هل عاد إلى مصر وتركها؟، لقد ظلت هذه أسئلة مفتوحة لانهاية لها بالنسبة لي من مسلسـل " عثمـان حفني في المكسيك " الناقص وغير المكتمل، وحتـى كوكـو سودان كباشي، ضاع مني في نيران جدة رودلفو المستعرة، لكني في الصفحات الأخيرة الناقصة أيضا وجـدت عثمـان حفني يكتب ما يلي:

" ولا أدري ما جرى بعد ذلك، إذ اشـتد الضـرب والقصف علينا من كل ناحية وكأن نيران جهنم فُتحت أبوابها جميعا لنتلظى بحريقها، فجريت إلى أجمة من الآجام القريبة من محل الأورطة التي كانت قد أفاقت عنـد هزيـع الليـل الأخير على ذلك الهجوم غير المتوقع، وصرت أعدو؛ وقـد ساد الهرج والمرج، وبلغت الفوضى مبلغها، لا أعرف أميمن أنا، أم ميسر؟، ثم إني اختبأت خلف بعض الأشجار الكبيرة،

بعد أن جرح إصبعي جرحا خفيفًـا، ولا أدري أكـان ذلـك بسبب الضرب، أم بسبب قفزي وعـدوي علـى الحشـائش المشوكة والصبارات على أية حال، وربما لشـدة الصـدمة، رقدت على الأرض وقد سلّمت أمري ، ويبدو أنني غفوت قليلاً، لأني تنبهت على صوت أنين وألـم بـالقرب منـي، فوجدت امرأة هندية مصابة، تنزف بشدة وكأنها على وشـك الموت، فقمت بخلع قميصي بسرعة، وربطت موضع الجرح منها، وكان في أسفل قدمها اليسرى، وبقيت ضاغطًا عليـه، حتى توقف النزف ولاحت تباشير الصباح، وإذا أنا على هذا النحو، والجارية بالقرب مني، وإذ بجماعة من الهنود القتالين قد جاءوا على أحصنتهم وحوطونا من كل ناحيـة شـاهرين رماحهم في وجهي يبغون قتلي، ثم إنهم حملوا فتاتهم علـى ظهر أحد الخيول، واقتادوني أسيرا معهم إلى حيث موضـع عشيرتهم وقد توغلوا بي توغلاً كبيرا في الغابة التي بدا لـي أن اتسعاها لا حدود له ولا نهاية.

وكنت بالطبع لا أفهم لغتهم، ولا يفهمون لغتي، ثـم إنهم قيدوني إلى جذع شجرة، وخـرج جمعهـم كلـه مـن مضارب خيامهم العالية غريبة الشكل للفرجة على هيأتي ...

وقلت لنفسي أنني مائت لا محالة، وقد يشعلون النار بي حيا، ليأكلونني بعد ذلك، فقرأت الفاتحة وتلوت الشهادتين على روحي، ورحت أقرأ في سري ما تيسر من آيات القرآن الكريم، ويبدو أنهم لاحظوا ذلك، فوقفوا ينظرون إلي بدهشة ويتطلعون إلى هيئتي وملابسي الغريبة عنهم، بينما كانوا يرتدون من الجلود ما يغطي أجسادهم إلى قليلاً، وكانت النساء عاريات الصدور والأجساد لا يتغطى منهن غير مواضع العفة، دونما خفر أو خجل، لكنهم ويا للعجب، سرعان ما فكوا أسري بعد قليل، وأطلقوا سراحي، فقد جاءوا إلي بالفتاة الهندية، التي فهمت منها وبإشارات الكلام معها أنها أوضحت لهم حقيقة ما فعلته معها، وكيف أنقذتها من الموت.

ثم إنهم أقبلوا علي مهنئين، وجاء كبيرهم وقد وضع على رأسه تاجا من ريش الطيور الملون الطويل وضمني إليه، وأتى بالإشارات المفيدة والدالة على أنه بات يهش ويبش في وجهي ويرحب بي، ثم إنهم دعوني إلى وليمة طعام وتركوني والجارية في موضع مخصوص من الخيمة بمفردنا، وقد تعجبت منها كثيرا وهي تخرج من موضع

المكان الذي نحن فيه، بعضا من الحجارة البيضاء، وقد تبين لي أنها ليست سوى حبات در، راحت تضعها في فمها وتقرشها قرشًا وتبتلعها، ثم إنها ناولتني بعضها لأفعل مثلها وأنا في غاية العجب والاندهاش، وكأن ذلك - كما فهمت - دليل محبة ومودة ثم إنني ...".

الوحيدة من أقارب نهال، التي ما زالت على علاقة بها، ابنة عم لأمها، امرأة عجوز ثرية، كانت أيام ثورة ١٩١٩، وكما تقول نهال من " الجيل الجديد " من النساء، الذي حارب وكافح كي يتعلم، وقد حاربت طنط نوران أهلها وإخوتها الذكور السبعة كي تدخل الجامعة، وكان هذا من الأحداث الكبرى في عائلتها، فأبوها كان ضابطًا في البوليس وأمها ابنة أحد شيوخ الأزهر وعمدة قرية في المنيا، ونجحت في النهاية في دخول كلية الآداب، وسافرت عدة مرات إلى أوروبا مع زوجها الطبيب، وهي منفتحة العقل ولم تغضب عندما تزوجت نهال من الرجل الذي أحبته مثلما فعلت أسرتها وبقية أبناء العائلة.

أصرت نهال أثناء إقامتي عندها، أن أذهب معها ووالديها لتلبية دعوة طنط نوران لوجبة عشاء. ذهبت، آخر

الأمر، رغم إصراري على رفض مصاحبة نهال فـي هـذه الزيارة: " ومالي يا بنتي ومال بنت عم أمك، ثم إنني وكمـا تعرفين لا أحب الرسيمات والناس المدهونة بالنشا "، ضحكت نهال وقالت: " لا نشا ولا حاجة، لو عرفتِ طـنط نـوران، أفكار كثيرة في دماغك ستختلف ... تعالي وا هـي سـت بسيطة ولطيفة ".

ذهبنا إلى طنط نوران: سيدة بيضاء سمينة نوعا، بها ملامح من جمال قديم، بيتها، بمنطقة الكوربة بمصر الجديدة، واسع بحيطان عالية ومعمار أوشك على الانقراض بالقاهرة، أثاث البيت معمول بفن وذوق أيام زمان، غرفة السفرة التي جلسنا لنتعشى بها من خشب جوز محفور يندر وجود مثلهـا الآن، وهناك طباخ عجوز وخادمة تضـاهيه فـي العمـر، يقدمون لنا أكلات مصرية مميزة، وفجأة خطر لي أن أداعب عم منجلي الطباخ:

- أنت من أي بلد يا عم منجلي في السودان؟

- وادي حلفا ... رد باقتضاب.

- وأنت في مصر من زمن؟ قلت.

وردت طنط نوران هذه المرة:

ـ أنا طلعت لقيته في البيت من صغري هو ومـال. (تقصد الشغالة). أما عم منجلي فقال:

ـ في مصر أبا عن جد. أصل أبوي كان في الجيش وجدي كان في الجيش زمان وطلعت لقيت أهلي كلهم هنا.

ـ آه. قلت وأضفت:

ـ يعني جدك حارب في الجيش؟

ـ آه. حارب زمان، سافر وراح فرنسا وعنده نيشان كبير.

ـ وأنت شفت جدك؟ تساءلت.

ـ لا. أبوي حكى لي عنه، وهو كـان أسـدا فـي الحرب، مرة ضرب بسنكة واحد في الحرب ورفعـه فـوق والسنكة غارزة فيه وشاله لفوق ... أبوي حكى لي.

ـ ومن أعطاه النيشان؟

ـ آه. هو راح باريس بعد الحرب و ...

ـ الحرب في أي بلد؟ ... قاطعته.

ـ الحرب في بلد بعيد خالص، ولمـا خلصـت راح باريس مع كل العساكر وأخذوا نياشين مـن الملـك هنـاك وانبسطوا خالص وكان أبوي عنده نيشان، وهو قال لي أنهم

أخذوا من الفلوس كثيرا وكان النيشان " لاكروادي لاليجيون دونور ".

ضحكت وقلت له:

- يا سلام. أنت بتعرف فرنساوي؟

ردت طنط نوران:

- ومال كمان عارفة لها كم كلمة فرنساوي، لكن منجلي يعرف فرنساوي أحسن منها لأنه وهو صغير دخل لمدة ثلاث سنين مدرسة فرنساوي، أصل حكايته حكاية، أبوه كان ميسورا وكان في الجيش، ولكن صرف فلوسه كلها في موضوع غريب خالص. واحد صاحبه اتفق معاه على أن يحفروا وينقبوا على الآثار في الصحراء وظنوا أن الذهب والكنوز مدفونة فيه ولكن نقبهم طلع على شونة. منجلي وإخوته اشتغلوا بعد ما افتقر أبوهم وأنا طلعت لقيته هنا.

سكت منجلي قليلاً، ثم أضاف وكأنه يتذكر شيئًا.

- شوف. جدي شاف الخديو في مصر بعد شوفته لماك فرنسا وهو وصل إسكندرية مع الجيش، وراحوا قصر التين وعملوا حفلة كبيرة للضباط والعساكر هناك، وكانت هيصة كبيرة ومزيكة وزمر وطبل، وأكل ملوكي. يا سلام.

قلت بدوري:

ـ يا سلام!

وأوشكت أن أمطره بمزيد من الأسئلة وأنا أفكر: هل يمكن أن يكون لديه معلومات عن عثمان حفني مـن خـلال جده؟. يبدو أن جده ولابد ـ وفقًا لما قاله ـ قد حارب فـي المكسيك، وإلا لماذا ذهب إلى فرنسا ليكرموه ويحصل علـى نيشان؟. في أية الحروب يمكن أن تكرم فرنسا جنديا مصريا أو سودانيا؟، حرب ١٩٤٨، أم حرب ١٩٦٧، أم في الحرب الضارية التي شنتها على مصر بعد تـأميم قنـاة السـويس بالاشتراك مع إنجلتـرا وإسـرائيل عـام ١٩٥٦، لا، إنهـا بالضرورة حرب الأورطة المصرية في المكسيك.

كان عم منجلي ما زال واقفًا يحمـل بيديـه طبقـين ممتلئين بكفتة داود باشا، وبدا كمن يتذكر أمرا إذ قال فجأة:

ـ أصل العساكر السودان هاربوا من هتـت كتيـر خالص ومن زمان جوه وبره وهتى مع المهدي، وهتى فـي بلاد بعيدة خالص.

ـ آه. قلت. وأضاف:

ـ وهتى مع عرابي باشا.

ـ سمعت هكايات كتيرة من أبويا. كنت عارفه كلـه وحافظه كويس، لكن نسيت. نسيت وأبوي مات من ثلاثـين سنة بعد أن رجع وادي حلفا و...

يبدو أن صبر طنط نوران قد نفد لأنها قالت وهـي تنفخ:

ـ حط الأكل يا منجلي قبل ما يبرد. وهـات معـك علبة الفوار. محطوطة عندك على الكومودينو جـوه جنـب السرير.

رحت أبتلع الطعام: كفتة داود باشـا ومحشـي ورق عنب وكوسا، وبامية في الفرن، وأنا أفكر في أولئك الـذين حاربوا مع جيش عرابي، وأولئك الذين حاربوا مع الإنجليـز ضد المهدي، قلت لنفسي لابد أن أبحث عنهم، سأسأل واحدا من المتخصصين في التاريخ، فربما يقودني إلى حكايتهم ...

تنبهت بينما كنت أحادث نفسي على صـوت نهـال وهي تقول لي:

ـ مالك. سهمتِ وسكتِ. كلي وخليكِ هنا.

ذات صباح وبينما كنت في طريقـي إلـى مكتـب المحاماة، فكرت في القيام بمغامرة مجنونة، أن أحمل نفسـي

في صباح مماثل وأركب القطار إلى سوهاج وأذهب بنفسـي إلى الحفن وأسأل عن عائلة رودلفو، عائلة عثمـان حفنـي، وأحل المشكلة بنفسي، فلابد وأن يكون هناك من يعرف عائلة عثمان حفني، ولابد أن تكون له بقايا عائلة، ذريـة وأحفـاد وأقارب ما في هذا المكان.

نهال التي أفضيت لها بما أنتويه ضحكت وقهقهـت، وأنا أشرح لها السيناريوهات المتخيلة لما سوف يحدث لـي في بلادة عثمان حفني.

سيناريو أول: أسأل عن العمدة وأذهـب إلـى بيتـه مباشرة وأطلب منه مساعدتي في التوصل إلى حقيقة الرجل.

سيناريو ٢: الذهاب إلى قسم الشرطة وشرح المشكلة لرئيس القسم أو النقطـة هـو لابـد أن يقـوم باتصـالاته ويساعدني.

سيناريو ٣: أن أسأل بعض الأهالي بنفسي مباشـرة ولابد وأن يعرف عائلته شخص ما من العجائز بطريقـة أو بأخرى، أو يكون سمع عنه مثلاً.

نهال علقت وهي ما زالت تضـحك، بـأنني أفكـر وكأنني لا أعيش في هذا البلد ولا أعرف عنها شـيئًا " هـل

تتصوري أنهم في قسم الشرطة سيستقبلونك بـالورود، أو أن العمدة سيأخذك بالحضن على دق الطبل والمزمـار؟، هـل البوليس فاضٍ لحضرتك ولصاحبك رودلفـو؟. سـبحان ا ، يعني لو لم تكوني محامية وفاهمة البلد ومعايشـة لظـروف الشغل في البوليس، كنت فهمتك، شيء غريب! عارفة: أبسط سؤال يمكن أن يوجه لك هو وما علاقتك أنت بالموضـوع؟. طيب ولو أخبرتيهم بموضوع الأوراق، ربما أخـذوها منـكِ واعتبروها مخطوطات قديمة أثرية ولا يجوز لكِ الاستحواذ عليها، والحقيقة يا بنتي، ربما يعتبرونك هبلة أو مجنونة في أفضل الأحوال، يعني الحكاية كلهـا مرفوضـة علـى كـل المستويات، لا تدخلي نفسك فـي مشـاكل ووجـع دمـاغ، خلاص. أنتِ قرأتِ الأوراق كلها، قولي لرودلفو عما وجدتيه فيها من معلومات واتركيه يتصرف.

- لكني وعدته بأن أبحث له عـن جـده وأصـوله العائلية.

- يعني أنتِ مغسلة وضامنة جنة. وا أنا حاسة أن موضوع جده سبوبة. يظهر أنـك واقعـة فـي غـرام الأخ رودلفو.

وضحكت بخبث.

- لن أرد على كلام من هذا النوع لأنك سيئة الظن، ولكن لم لا، هو ظريف، أنا مستلطفاه، ولكن لا أقول وقعت في غرامه. نهال ... الموضوع أصبح عندي أكبر مما تتصوري، أنا أريد أن أعرف كل شيء عن عثمان حفني وعما حدث له. أنا متعاطفة معه جدا ومتعاطفة أكثر مع كل عساكر الأورطة وأولهم كوكو سودان.

- من؟! ... تساءلت بدهشة.

- كوكو سودان كباشي. أنت لا تعرفينه، لكني أحببته جدا، ومتعاطفة معه إنسانيا، أريد أن أفعل شيئًا بهذه الأوراق، شيئًا أهم من رودلفو ومن الغرام الذي تظنينه. طيب ما رأيك أن أذهب إلى سجلات القلعة، أو مصلحة الأحوال المدنية في العباسية، وأكشف عن أصله بالكمبيوتر؟

ردت بلهجة مهنية جادة:

- لازم أن يكون عندك الاسم الثلاثي وأنت لا تعرفين عنه أي شيء غير اسمه الأول فقط.

لن أذهب إلى الحفن، ولن أبحث عن عثمان وعائلته ولكني قررت كتابة خطاب طويل إلى رودلفو:

" عزيزي رودلفو

هل تعرف كوكو سودان كباشي، هل سـمعت يومـا عنه، أو عن خليفة سودان وبخيت خميس، وكـودي الفيـل وسعير الجيش، ومرسال سودان، ونوركومي، وأنجلو حبيب ا وغيرهم من أنفار الأورطة التي سافر معها جـدك إلـى المكسيك، ليحاربوا مع فرنسا، ضد أعدائها من المكسـيكيين هناك. لقد كان كوكو سودان فتى يافعا يلهو ذات صباح فـي الغابة الاستوائية الرائعة، ربما كان يحـادث العصـافير أو يختبئ من نمر كاسر، أو يمتطي ظهر فيل متكاسـل أثنـاء مروره بالغابة، وفجأة انقضت عليه عصـابة حقيقيـة مـن الوحوش في هيئة بشر متمدنين، كانوا في الحقيقة جماعة من تجار العبيد، يعملون لصالح والي مصر، أو ملك الإنجليـز، أو إمبراطور فرنسا، لا يهم كل ذلك، المهم هو أنهم سـرقوا كوكو وصادوه صيدا، أبعدوه عن عالمه، ليبيعوه في سـوق النخاسة وسرعان ما ألقى به بعد ذلك في عالم غريب، عـالم قاس ومتوحش، يعمل لحساب عصابة مسلحة، مهمتها إبقـاء جماعة أو عصابة أخرى بشعة في سلطتها ونفوذها، لم تكن

هذه العصابة المسلحة غير الجيش الذي أجبر كوكو وغيـره من زملائه على أن يكونوا جنودا وأنفارا فيه.

لقد سفر كوكو إلى المكسيك مـع رجـال آخـرين كثيرين، وكان معهم جدك الشيخ عثمان لمباركتهم والصـلاة بهم والترحم عليهم بعد موتهم، وهناك ذهـب الجميـع إلـى أرض لم تطأها أقدامهم من قبل ولم يذهبوا إليها طلبا للرزق أو فرارا من جريمة ارتكبوها، ولكنهم ذهبوا ليحـاربوا مـع عبيد آخرين، من الجزائر، وعبيد من جزر الأنتيل، ويكونوا وقودا لحرب قذرة، لأجل أن يحصل ملك فرنسا على مزيـد من نبيذه الفاخر في كأسه الكريستالي ويتمكن من مص دماء عبيد آخرين لن تغيب آثار دمائهم المسـفوحة عـن أطباقـه وأوانيه الفضية أثناء الطعام، ولكي تتمختر امرأته وأمثالهـا في أثوابها الحريرية الفضفاضة.

أنت لا تعرف كوكو سـودان وأمثالـه، لا تعـرف حكايتهم الحقيقية، مثلما كنت أنا لا أعرفها من قبل، فشـكرا لك لأنك قدتني، دون أن تدري لمعرفتهم ... لقد كان بحثـك عن جدك يا رودلفو هو الخـيط الأول الـذي قـادني إلـى قضيتهم، وهو المفتاح الذي فتحت به عالما سحريا غامضا لم

أكن أعرفه من قبل، لقد قرأت أوراق جدك كلها، ولم أعرف من هو ولا يوجد في الأوراق ما يـدلني علـى بقائـه فـي المكسيك أو عودته مرة أخرى إلى مصر، ولكن، وجدت فيها ما دلني وقادني إلى معرفة الكثير عن العالم الذي أعيش فيه ... هل قلت لك مرة أنني بت أنتمي إلى واحدة من جمعيات حقوق الإنسان في مصر؟ لا أدري، على أية حال فقـد بـت أتشكك في جدوى الانتماء لواحدة من هذه الجمعيـات، فمـا الذي تفعله، أو بالأحرى ما جدوى الذي تفعله في هذا العـالم الوحشي الذي نحياه، أشعر الآن، وبعد قراءتي لأوراق جدك، كم هو ضئيل ما تفعله هذه الجمعيات، وكم هو محدود مقارنة بما قرأته في هذه الأوراق من ظلـم صـارخ ولا إنسـانية فاضحة.

الآن يا رودلفو بدت لي قضية محمد عبـد الحفـيظ بركات، قضية باهتة، لا تستحق كل ذلك الحماس الذي أوليته لها ذات يوم مقارنة بقضية كوكو سودان وزملائه ... آسفة، أنت لا تعرف قصة محمد عبد الحفيظ بركات لكني سأسردها عليك ذات يوم إن قدر لنا الالتقاء مرة أخرى.

بدأت أشعر منذ شهور طويلة، ولأول مرة، براحـة داخلية عميقة، ونوع من السكينة وبرغبة حقيقية في النـوم، كما بدت شهيتي للطعام تزداد مرة أخرى.

كنت قد غادرت الإقامة الإجبارية في بيـت نهـال، وعدت إلى بيتي مرة ثانية، بعد قضاء أسبوعين ممتعين معها ومع والديها ـ غاية في الشقاوة والظرف ـ وكانت عمتي قد أعلنت لي تليفونيا أنها انتهت تماما من أعمال الطلاء، " وكل شيء رجع مكانه والشقة صارت زي الفل، وتعالي يا حضرة البرنسيسة وبطلي الدلع الماسخ ".

استقبلتني عمتي بترحاب ومفاجأة، فقد غيرت لـون شعرها إلى البني الداكن، أثنيت على ذوقها الرفيع هذه المرة: " خليك في البني الغامق على طول يا عمتي لأنه حلو عليكِ ويمشي مع لون عينيكِ ويناسب سنك ".

تمددت في سريري بسعادة حقيقية، وفرحت بنظافـة الحيطان وإشراقها باللون الأبيض سن الفيل، ورحت أمتطى وأتثاءب كجرو مبتل خرج لتوه من الماء وقبع في الصـباح يتمشى. نمت بسرعة، وكنت لم أنم جيدا في اليوم الفائـت إذ سهرت مع نهال ووالديها.

نلعب الكوتشينة: الكومي، والشايب وشلّح، وكنت قبل أن أنعس أفكر في كوكو سودان وعثمان حفني، والخطـاب الذي سطرته لرودلفو، والهنود، وجمعية حقـوق الإنسـان، والعالم الغريب القاسي الذي أعيش فيه، وسرعان ما غلبنـي النوم لأرى فيما يرى الحالم، بأني داخل محكمة من المحاكم التي أدور عليها أثنـاء علمـي. لا أدري، أكانـت محكمـة الاستئناف العالي، أو مجمع العباسية، أم محكمـة عابـدين. كنت جالسة مع زملائي ننتظر دورنا في الرول، كنت قلقـة وعصبية، أجز على أسناني حينًا وأعض شفتي حينًا آخـر، بينما زميلي يقرأ في مجلة ميكي وأنا أترجاه " وحياتك يا سيد أعطني صفحة واحدة أسلي نفسي بها وأرجعها لـك تـاني " لكنه كان يفرض بعناد طفولي أغاظني، وعندما جاء دورنـا ودخلت إلى قاعة المحكمة حيث تنظر قضيتنا، فوجئت بكوكو سودان يترأس منصة القضاء وحوله مجموعة من العسـاكر السودانيين، يرتدون الزي ذاته: البزات الأنيقة ذات الياقـات القصيرة والأزرار المصطفة، والغريب أننـي لاحظـت أن كوكو وكان قد بدا عاريا تماما اللهم إلا من قطعة مـن جلـد النمر تستر عورته وقد فتح أزرار روب القضاء الأسود عن

آخرها، كما كان هناك عصفوران ملونان غاية في الروعـة يقف كل واحد منهما على كتف من كتفيه، أمـا رأسـه فقـد تغطى بتاج من زهور النرجس الأبيض البديع.

فوجئت بأن حاجب المحكمة هو محمد عبد الحفـيظ بركات، كما رأيته عندما جاء أول مرة لننظر مشكلته ونرفع له قضيته، الأنف الضخم والعينان الواسعتان المدهوشـتان. مفاجأتي الكبرى كان عثمان حفني شخصيا، فقد بدا لي شيخًا جليلاً، طويلاً داكن اللون، حلو القسمات وقد جلـس مرتـديا كامل زيه الديني: العمامة البيضاء علـى رأسـه، والجبـة والكاكولا على جسده.

ثم إنه تم النداء على المتهمين، وإذا بي أرى شخصا أجنبيا، سمعت من يقول أنه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، وكان يحمل كأسا كريستاليا ضخما من النبيذ في يده، بينمـا تراصت في أصابعه الممسكة بالكأس عدة خواتم ضخمة من الفضة، وكان يرتدي بزة حمراء فاقعة موشـاة بشراشـيب ذهبية لامعة عند الأكتاف، وفي أعقابه دخل بقية المتهمين في قفص الاتهام، الخديو سعيد والخديو إسماعيل (عرفتهما فورا لأني كثيرا ما رأيت صورتيهما منذ صـغري فـي الكتـب

المدرسية وفي متحف قصر الجوهرة بالقلعة) ومـا إن تـم إغلاق القفص على الثلاثة، حتى بدءوا يلعبون لعبـة طالمـا لعبتها مع أبي وعمتي عندما كنت صغيرة، لعبـة اسـمها " صلح "، فكان أحدنا يقف وخلفه بقية اللاعبين، ويمد يده ليقوم واحد من الآخرين بضربه عليها بلطف، وعلى الواقف فـي الأمام أن يكتشف بنفسه ودون أن يستدير مـن الـذي قـام بضربه.

عندما تم النداء على ممثل النيابة، فوجئـت بشـاب فلاح يرتدي ملابس الجيش، يتقدم إلى موقعة بالمنصة، كـان شديد الشبه بأبي، لدرجة أن قلبي أخذ في الخفقان بمجرد أن رأيته، وتمالكت نفسي حتى لا أجري إليه وأحتضنه، وعندما صار في موقعه ليترافع، بدأ خطابه بحماس شـديد، وقـال كلاما إنشائيا كثيرا طالما تعودت عليه في قاعات المحـاكم، مما دفعني لأن أغفو للحظات ولكني تنبهت عنـدما وجدتـه يقول:

" وفي اليمن أيضا تم الزج بأبنـاء مصـر الأبـرار ليكونوا وقودا لحرب لا ناقة لهم ولا جمل فيهـا، وليمـوت الآلاف منهم هناك، ولقد كنت أحد ضحايا هذه الحرب حتـى

بصوا. ثم إنه رفع ساقه اليسرى أمام جميع الحضور وشمر عنها بنطاله، فتطلعت إلى تلك الساق مثلما تطلع الجميع، واكتشف أنها ساق ماعز ليس إلا.

واستمر ممثل النيابة في مرافعته قائلاً:

" وهؤلاء المجرمون جميعا يجب ألا تأخذنا بهم رحمة أو شفقة، أو نظن أنهم الذين يلعبون الصلح للمتعة وتزجية الوقت، لا. فهؤلاء إنما هم وحوش قتلة. انظروا إلى ذلك الذي يعب النبيذ منتشيا (أشار إلى نابليون الثالث)، إنه في الحقيقة أفاق مغرور، طالما رغب في التباهي داخل المحافل الدولية وراح يبحث له عن Prestige بين أمثاله من خلال تحقيق انتصارات على حساب آلاف الأبرياء، ويدفعهم إلى الموت دفعا على نحو لا إنسانية ولا رحمة، ثم ذلك السعيد (يقصد الخديو سعيد) الذي ما فكر يوما في أبناء شعبه المسكين، الشعب الذي حمله الأمانة ولم يصنها ولم يتمثل القول الكريم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ". ثم ذلك السمين التافه، محب الظهور والفشخرة، والذي أسال دماء أبناء الوطن وسفحها أمولاً تحت أقدام أوجيني عشيقته دون أن يحسب حساب أولئك البسطاء الذين ماتوا من الفقر

والجوع والتعب عندما حفروا قناة السويس من أمثال محمـد عبد الحفيظ بركات (وهنا صاح محمد عبد الحفيظ: خـدامك ومحسوبك يا سعادة الباشا). أجل أقول محمد عبد الحفـيظ بركات وأمثاله من الملايين أبناء هذا الشـعب العظـيم يـا حضرات القضاة، إنني أطالب باسم الشعب وباسـم العـدل وباسم كل الشرائع السماوية الإنسانية الكبرى التي ما مثلهـا وما وعاها ذلك المغرور القابع في القفـص (أشـار إلـى نابليون الثالث)، والذي لم يعمل يوما حتى حسـابا لمبـادئ الثورة الفرنسية العظيمة في العدل والإخاء والمساواة، أطالب بتوقيع أقصى العقوبات عليه، وعلى هذين المستهترين اللذين يلعبان معه الآن " صلح "، غير عـابئين بغضـب الجمـوع وغير محترمين لوقار المحكمة، وتوقها لتحقيق العدل الـذي هو شريعة السماء قبل أن يكون شريعة الأرض.

ثم أعلن رئيس المحكمة بعد انتهاء ممثل النيابة مـن مرافعته، رفع الجلسة لمدة عشر دقائق للمداولـة، علـى أن تستأنف بعد ذلك للنطق بالحكم.

خرجت من القاعة مع زملائي خـلال الاسـتراحة لنشرب شيئًا ونتداول بدورنا فيما حدث، وفي هـذه الأثنـاء

جاءت نهال وهي تضع عمة كبيرة على رأسها، جعلتنـي لا أتمالك نفسي من الضحك، وكانت تحتسي القهوة وقالـت أن جمعية " نصرة الحق الإنساني " التي أنتمي إليها، ستقيم ندوة في فندق المريديان مساء اليوم " موضوعها حق المواطن في أكل القثاء المحلولة "، وأن ذلك سيعقبه مولد كبير في الفندق بمناسبة مرور سنة وربع علـى تأسـيس الجمعيـة " ولازم تحضري يا خالدة، تصوري جابوا سـبعة خرفـان وعجـل وعاملين فتة بلحمة، وسيتم خلال المولد تزويج ثلاثة من أبناء رئيس الجمعية على ثلاثة من بنات رئيس جمعيـة حقـوق إنسان أخرى "

قلت: سيدي يا سيدي، ربنا يهني سعيد بسعيدة، لكني لن أحضر فقد قرفت من كلام جمعيـات حقـوق الإنسـان الفارغ، فهو لا يجيب ولا يودي. روحي أنت لوحدك.

عدنا للقاعة مرة أخرى، فصاح محمد عبـد الحفـيظ بركات: محكمة، وبعدها اندفع محامي الدفاع عن المتهمـين في كلامه، ويالدهشتي كان شخصا سمينًا ذا وجه أحمر منتفخ ويرتدي ملابس مهرج سيرك وعلى أكتافه سـبليتان ذهبيـة بشرابات وكأنه ملك، فهمست لنهال من هذا، وكانت تجلـس

بجانبي، فقالت في بهدوء: ألا تعرفينـه، إنـه الأرشـيدوق مكسيمليان حاكم النمسا، همست لها مرة أخرى وما علاقتـه بهذه المحكمة، فضحكت بصـوت عـال حتـى أن رئـيس المحكمة كوكو سودان خبط على المنصة بالشاكوش وقـال: هش كله يسكت، وإلا كله يخرج بـره وأنـا أزعـل منـه، واستمرت نهال تهمس في أذني بصوت خفيض " كـان هـو ونابليون الثالث حلفاء في الحرب ".

بدأ مكسيميليان مرافعته عن المتهمين بالاعتذار لأنه كان منشغلاً بحفل استقبال وأن الفالس كان رائعـا وعزفـوا الدانوب الأزرق لشتراوس والأوركسترا كانـت أكثـر مـن ممتازة، ثم إنه أخرج من جيبه منديلاً أحمر كبيـرا وكأنـه سيصارع الثيران، وبدأ في البكاء وهو يقـول: وا حـرام تعملوا في جيبي كده. نابيلون عزيزي إيـاك تزعـل. كلـه سيكون بخير إن شاء ا . لكن كل المشكلة أنت قاعد تلعـب مع ناس بزرميط، ابعد عنهم لأنهم هم سبب المشكلة. أصلهم بربريان. أرجوكم اتركوا صديقي. اتركوا حليفـي. كوكـو سودان، أنت أسود بربري، غير متحضـر. أنـت لازم أن تكون عبدا خادما لنا. كوكو سودان أنت لازم تموت لأجـل

نابليون ولأجل مكسيميليان ولأجل كل رجل أبـيض يعـيش مبسوط ومستريح. كوكو سودان كل واحد مثلك لازم ينتهـي من الدنيا. وأنا ونابليون وناس لونهم أبيض يكونـون فيهـا وبس. مفهوم. كوكو سودان ... أنت ...

فوجئت بمن يهزني هزا عميقًا. فتحت عينـي لأرى عمتي واقفة بجانب السرير وهي ترتـدي تاييرهـا الأسـود الطويل.

- يعني يا خالدة تروحي في سابع نومة من سـاعة العصر لحد الساعة سبعة. أنا طالعة للعزاء. أصـل سـنوية عادل ابن طنط سميحة فوزي حل ميعادها. يا عيني مـرت عشر سنوات بسرعة على موته في حفر البـاطن، الشـاب اتخطف منها وأمه ما زالت تتحسـر عليـه كـل يـوم. ا يصبرها.

ورقة أخيرة

مرت شهور وبدأت أنسى قصة رودلفو وعثمان حفني. وفي أحد الأيام، وبينما كنت جالسة أتعشى مع عمتي، قالت لي فجأة:

- نسيت أقول لك، لقيت ورقة قديمة وقت ما كنا بنوضب الشقة ونبيضها، حطيتها وقتها في كتاب من كتبك، وقلت يمكن تلزمك وتكون ضرورية ووقعت منك وأنت ساهية عنها.

ثم قامت عمتي ودخلت حجرتي وعادت بورقة ويالدهشتي، اكتشفت أنها من أوراق عثمان حفني، وقالت:

- قلت لك خمسين مرة بطلي تتركي الكتب والأوراق على السرير وتنامي، لأن واحدة منها تروح هنا ولا هنا وأنت لا دارية وتبقى مشكلة.

لم أرد عليها، أخذت الورقة من يدها بسرعة ورحت أقرأ، كانت الورقة مرقمة بالرقم ١٠٢، وقد قرأتها بصعوبة لأن حروفها بدت باهتة جدا ويبدو عليها آثار ماء، أو دموع أو شيء من هذا. لا أدري " مازلت مترددا في أمري، أعود أو لا أعود، هنا كل شيء يسير على ما يرام، أزرع مع

امرأتي الأرض ونأكل من خيراتها، هؤلاء الهنود طيبون ولديهم قيم ومثل وأخلاق لا تشوبها شائبة والمرأة ممتعة حقًّا وتقوم بواجباتها معي خير قيام وهي حسنة المنظر ولود لا أطيق البعد عنها ليلة واحدة وقد تعودت على طباعي غير أنها ترفض التقبيل أثناء المجامعة، وقد صفعتني بشدة على وجهي، عندما حاولت معها ذلك لأول مرة وكدت أن أضربها بدوري لولا دهشتي التي منعتني عنها، وقد فهمت منها بعد ذلك أن التقبيل من المرفوضات المحتقرات لدى هؤلاء الهنود، ومن الأمور التي لا تجوز، لكن ما عدا ذلك فكله مباح ومن حسن الحظ أنها ولود، أنجبت البنات والبنين، صحيح أنهم كلهم ماتوا، ولم تبق منهم إلا واحدة هي قرة عيني ومهجة فؤادي فاطمة والتي سميتها تيمنًا باسم أمي، وهنا ينادونها بفاطو أو فاتو، لأنهم لا ينطقون الطاء إلا مخففة وكأنها تاء. وعلى رغم كل ما أنا فيه من طيب عيش، إلى أن حنينًا هائلاً، وشوقًا عارما يأخذاني إلى الوطن، فأنا ما زلت أفكر في أهلي وبلادي وأحلم بهم وبها كل يوم في مناماتي، وتواتيني بها تفاصيل وشذرات من مشاهد طفولتي وهناءتي بها، وعندما تسح دموعي، وتفيض شجوني،

خصوصا عندما يسكن الليل وينام الجميع، أقول لروحي: غدا يا ولد تحزم أمرك وترتب للسفر والعودة إلى ديـارك مـرة أخرى، ولتحملك واحدة من السفن المسافرة إلى طولـون أو غيرها من المدن التي توصل بين هنا وبين الديار وما أكثرها على البحر الرومي، وأنت لا يعـوزك المـال ولا ينقصـك شيء، ولسوف تكون عودتك مفاجأة للجميـع، الـذين ظـن أكثرهم أنك مت وفنيت في هذه الفرضة البعيدة من الأرض، ولكن عندما أصل إلى هذا الحد من التفكير أيضـا، أقـول لنفسي: ولكن إلى أي عالم تعود، أتعود إلـى أولئـك الـذين يتحكمون في مصيرك مرة أخرى، ويقذفون بك إلى حـرب أخرى، وعالم مجهول؟، أتعود لتلقي وتكابد مثل مـا لاقيتـه وكابدته في رحلتك إلى هنا؟، أتعود لتشهد مثل ما شاهدت من مآسٍ وآلام، وفظائع، تتمنى لو أن ذاكرتك تمحوهـا محـوا حتى تنساها إلى الأبد؟. أتعود لعالم شرير يأكل فيـه القـوي الضعيف، ويتسلط فيه بشر على أرواح بشر؟، هنا أنت بعيد عن كل هذا، أنت تعيش حياة مسالمة مع هـؤلاء البسـطاء الذين يكرمونك ويجلونك ويعاملونك معاملـة الأخ والوالـد والابن، فلم الحماقة والتهور، ولما لا تقنع بما كتبـه ا لـك

وما أنعم عليك به من نعم؟. وهكذا ما زلت حائرا مترددا، لا أكف عن البكاء في بهيم الليالي، والنجـوم فـوقي شـاهدة، والأفق أمامي ممتد بلا حدود، وأظل أفكر وأتساءل: أأعود أم لا أعود؟!